وإطلاق سراحه ، وعودته إلى عمله السابق . وإشعاراً ليوسف عليه السلام بأن تعبيره للرؤيا قد تحقّق بحذافيره ، له ولرفيقه الخباز أيضاً . ففهم يوسف ضمناً أن الخباز قد صُلب وأكلت الطير من رأسه فعلاً . قال تعالى على لسان الساقي: ﴿ يوسف أيُّها الصديق أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ .

ويلاحظ أن الساقي استعمل ضمير جماعة المتكلمين وليس المفرد في قوله: « أفتنا » على الرغم من أنه كان بمفرده مع يوسف ، لأن الرُّؤيا ليست له . وهذا ما فهمه يوسف عليه السلام . ويلاحظ أيضاً أن الساقي يسرد الرُّؤيا مباشرة دون توطئة صريحة لها بعكس المرّة الأولى ، ولكنّ نَعْتَ يوسف بأنه الصديق ، يمكن أن يعتبر إلى حدّ ما توطئة عامة . وإن في ذكر الرُّؤيا إيجازاً بليغاً أحاط به يوسف عليه السلام ، وبنى عليه تعبيره . فليس هناك تحديد للسنبلات اليابسات . وقد فُهم العدد بأنه سبع . لأن عدد السنبلات الخضر هكذا . وليس هناك تحديد لعمل السنبلات اليابسات أيضاً ، وقد فهم عملها من عمل سبع البقرات العجاف بالسّمان .

وإذا كنا تبينا ثقة الساقي وقد وصل إلى يوسف من حصوله على صدق التعبير ، فإنا لا نتبين شيئاً من هذه الثقة في عودته إلى الناس سالماً ، الملك والملأ بخاصة ، لهذا تضمن كلامهم ، المتعلق برجوعه المترتب عليه علم الناس . على « لعل » مرتين ﴿ لعلّ أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ . ومعروف أن لعلّ من الحروف المشبّهة بالفعل ، وهي تدل على الطمع والإشفاق(١) إنه يطمع أن يعود معبّراً للرؤيا التي عجز عن تعبيرها خاصّةُ الملك فضلاً عن سواهم . ومع ذلك هو مشفق من اختّرام الموت له في الطريق . وهو يبني على هذا الطمع والإشفاق طمعاً وإشفاقاً آخرين ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ وإن

---

١ ـ انظر القاموس مثلا .

ما جاء على لسان الساقي من قوله تعالى ﴿ لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ ليدلّ على أننا بصدد شخصية متأنية متّزنة راجحة التفكير ليست غُفلا من التجارب . إنه يفترض أسوأ الفروض ، فليس المهم أن يعرف هو ، إنما المهم حقاً أن يصل سالماً إلى الناس ، وفي وصوله وصول المعرفة لهم . فإذا عرفنا أن هذه الشخصية المتأنية المتزنة هنا لا تكون هذه صفتها حينما يذيع عجز الجميع الثابت عن تعبير رؤيا الملك ، إذ نراها مندفعة بحماس في هذه القضية التي يعتقد الجميع ، بأن هذه الشخصية لا يمكن أن يكون لها عَلاقة بها ، فضلا عن أن تُستفتى ، فذلك دليل على ثقة الساقي المطلقة في يوسف عليه السلام . وإن إقدامه حينما يجب الإقدام واتزانه حينما يجمل الاتزان ، ليدلان على أننا بصدد شخصية حكيمة ، ما كان من الجائز أن تتورّط فيما اتهمت به وأدخلت بسببه السجن ، ولهذا نجت من الصلب بينما هلكت الأخرى .

ثم إن الساقي المتزن يستعمل لفظة الناس كما جاء في الآية ﴿ لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ ولا يقول مثلا: « لعلي أرجع إلى الملك » لأن المسألة لم تعد خاصة بالملك ، فقد شملت الملأ وسواهم أيضاً ، ألم تصل المسألة إلى الساقي وفي وصولها إليه دليل على وصولها إلى سواه ؟ وكما اهتم لها الملك اهتمّ لها سواه .

ثمّ إنّ السّاقي رجل يعرف حقيقة قدره ، فليس له كلام مباشر مع سيّده ، وليس هناك إشارة واحدة إليه بضمير المفرد ، إنما يجيء على لسانه ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ وليس أنا أنبئك بتأويله فأرسلني . وإن الشيء نفسه يقال عن إشارة الساقي إلى الناس ، وليس إلى الملأ فضلا عن سيده الملك .

وبوصول تعبير الرُّؤيا إلى الملك ينتهي الدور الذي قام به الساقي ، الفتى الثاني .

الملـــك وملـــؤه :

قال تعالى ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ .

وأوّل ما نودّ أن نقف عنده صيغة الفعل المضارع « أرى » التي تحكي الحال والتي سبق أن جاءت نفسها في قصّ الفتيين رؤياهما على يوسف في قوله تعالى ﴿قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً . وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه﴾ وتعليل مجيء هذه الصيغة هو أن الفتيين مهتمّان بتأويل الرُّؤيا ، بحكم تقديرهما الطبيعي للموقف الرّاهن واهتمامهما بمصيرهما ، خاصّة وأن كل رؤيا لها عَلاقة من نوع ما بطبيعة عمل كلّ من الفتيين . وإنّ القلق النفسي الذي كانا فيه ، جعلهما متمثلين للرّؤيا تمام التمثل ، ساعيين بإلحاح وراء تعبيرها .

وقريب من هذا الشيء يقال عن الملك ، الذي يبدو مهتماً لهذه الرؤيا اهتماماً بعيداً ، خاصة وأنها رؤيا أفزعته وهالته . لقد رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السّمان . ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبُّها وسبعاً أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها(١) . وقد كان طبيعياً أن يهتمّ لهذه الرؤيا اهتمامه بذاته وبقومه . فكان متمثلا لها مهتماً بها أثناء قصه لها على ملئه ، ولهذا والله أعلم ؛ استعمل الفعل المضارع « أرى » استعمال الفتيين له .

ويبدو جلال الملك من طريقة مخاطبة ملئه ﴿ يا أيها الملأ ﴾ إنها طريقة كلُّها إكبار وإجلال . ثمّ إن في توجيه الخطاب لأشراف دولته وأعيانهم في هذا الأمر دليلاً على ما بعده ؛ إذْ يُفهمُ أنّ الأمر شورى بينهم .

---

١ ـ البحر المحيط ٥/٣١٢ .

فليس سؤال الملك خاصته وقفاً على هذا الأمر ، وهذا تصرف حميد منه .

وحينما نقارن بين طريقة طلب الفتيين من يوسف تعبير الرؤيا في قوله تعالى:﴿ نبئنا بتأويله ﴾ وطريقة طلب الملك في قوله تعالى:﴿ أفتوني في رؤياي ﴾ نتبين اهتمام الملك الفائق بهذه الرُّؤيا ، إذ يطلب الفتيا ، وهي عادة تستعمل في الأمور ذات الأهمية الكبرى . ثمّ إن العادة قد جرت بأن تُطلب الفتيا عند من هُمْ أهلٌ لها . وليس هناك من هو أولى بعرض هذا الأمر وطلب الفتيا من خاصة الملك . فحينما يقول الملك:﴿ أفتوني ﴾ فذلك دليل على المنزلة العالية التي يتمتع بها في نفسه خاصّتُه . ونستطيع أن نفهم أن الودّ متبادل . ويحرص الملك على ضمير المتكلم ﴿ رؤياي ﴾ ويكرّر الرّؤيا مرّةً ثانية ﴿ إن كنتم للرّؤيا ﴾ . فلم يأت على لسانه مثلاً « أفتوني في الرّؤيا إن كنتم لها » فدل ذلك على أن مجيء ياء المتكلم وتكرار الرّؤيا بلفظها ثانية ، على الاهتمام البالغ بها . وحينما يجيء على لسانه ﴿ إن كنتم للرّؤيا تعبرون ﴾ فربما كان ذلك دليلاً على رهافة إحساس هذا الملك ، فلعل طلبه من الملأ أن يعبروا رؤياه ، شيء لم تجرِّبه العادة ، وكان على علم تامّ بذلك . ولكن اهتمامه بها هو الذي دفعه إلى طلب فُتيا الذين يُفتون في معضلات الأمور . ثمّ هو على علم تام بأن طلبه غير العاديّ ، ليس من الضروري أن يتحقق على أيديهم ، فهو لا يريد أن يكلّفهم من أمرهم عُسرا ، مع قدرتهم الفائقة على الإفتاء في المعضلات من صميم اختصاصاتهم . ولا يخفى أنّ أصل الكلام « إن كنتم تعبرون الرّؤيا » وإنّ تقديم الرُّؤيا في قوله:« إن كنتم للرّؤيا تعبرون » دليل على فرط الاهتمام بها .

وقد وجد الملأ الأذكياء في اشتراطه منفذاً ، إذ جاء على لسانهم قوله تعالى:﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ . وأوّل ما يلاحظ أنّهم عدلوا عن استعمال الرّؤيا بصيغة المفرد إلى الأحلام ، بصيغة الجمع ، جمع حُلُم . وسبق ذلك قولُهم:« أضغاث » جمع ضِغث ،

وهو أساساً قبضة حشيش يختلط فيها الرَّطْب باليابس . فمعنى « أضغاث أحلام : تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان » (١) وهنا نتساءل : لِمَ فرَّ الملأ من استعمال لفظة الرّؤيا ، التي استعملها الملك للدلالة على ما رأى في منامه ممّا اعتقد أنّ له تأويلا ، إلى استعمال الحُلُم بل الأحلام ، في صيغة الجمع ، للدّلالة على أن ما رأى الملك في منامه ليس حديثاً واحداً لنفس ، بل مجموعة من الأحاديث ، لا أساس لها من الصحة ، ولا صلة لها بالواقع ؟ هل تعمدوا الفرار أم أن هذا واقع ما فهموا وتبيّن لهم ؟

والمسألة لا تخلو من أحد احتمالين : إمّا أن يكون الملأ لا يستطيعون أساساً الإفتاء في أمر كهذا . لأنه بعيد كلّ البعد عن اختصاصاتهم . وإمّا لأنهم فهموا من هذه الرّؤيا شيئاً ما غير سارّ . وهم إضافة إلى كونهم يجهلون تحديد هذا الشيء ، فإنهم آثروا التهوين من شأن الرّؤيا ، واعتبارها أضغاث أحلام .

والحقيقة أنّ رؤيا الملك ذات طابع مهيب ، ولعلّ هذا هو الذي جعل الملأ يجعلون الرؤيا من باب الأحلام . ثم هُمْ ينفون عن أنفسهم العلم بتأويل هذه الأحلام ، وهذا شيء طبيعيّ . وقد يفهم من قولهم هذا أنهم كانوا يستطيعون تعبير ما رآه الملك في منامه لو لم يكن حُلما . وبما أنه قد ثبت فيما بعد ، أن ما رآه الملك في منامه كان رؤيا وليس أضغاث أحلام ، بدليل أنّ يوسف عليه السلام قد عبّرها فعلا ، لذلك نحن نميل إلى أن الملأ أدركوا بأن هذه الرّؤيا لا توحي بشيء يسرّ . وهم لا يستطيعون أن يعيّنوا على وجه الدقّة الشيء الذي تدل عليه . ثم هم لا يريدون أن يسوءوا الملك بإبداء انطباعاتهم عن الرّؤيا . لذلك فزعوا بآمالهم إلى تكذيب الرّؤيا والادّعاء بأنها مجموعة أحلام .

---

١ ـ الكشـاف ٢/١٤٠ .

والجزئية التي أجدني مدفوعاً للعودة إليها هي التي استعمل فيها الساقي ضمير المفرد المذكر ، أعني قوله تعالى:« أنا أنبئكم بتأويله » إنه لم يقل « بتأويلها » كي يقال إنّ الضمير يعود إلى الرّؤيا أو مجموعة الأحلام . فكيف نوفق بين قوله وقول الملأ . ؟

والجواب على ذلك والله أعلم ، أنّ المسألة لا تخلو من أحد احتمالين :

أولهما : أن الساقي إنما يستعمل الضمير الذي استعمله هو ورفيقه الخباز حينما قصّا على يوسف الرّؤيا وطلبا منه تعبيرها . أعني فيما جاء على لسانهما ﴿نبئنا بتأويله﴾ . ويكون المعنى هنا والله أعلم ، نبئنا بتأويل ما قصصنا عليك من حديث . وبناءً على ذلك يكون المعنى في قول الساقي ﴿ أنا أنبئكم بتأويله﴾ أنا أنبئكم بتأويل ما قصصتم وتكلمتم به من حديث .

وثانيهما : أن الساقي الخاصّ بالملك ، كان بطبيعة عمله ، مطّلعاً على كلّ ما دار في المجلس ، ومنذ أن قصّ الملك رؤياه ، تذكّر يوسف عليه السلام ، وحينما تخلّص من الملأ إلى الزّعم بأن ما رآه مجرد أضغاث أحلام ، إذا بالساقي الذي لم يُسْأَلْ قطّ ، يدخل في الحديث متحدياً ويقول كما جاء في الآية:﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾ وكأن المعنى ، والله أعلم ، أنا أنبئكم بتأويل ما زعمتم أنه مجرّد حُلم . ويكون الضمير في هذه الحال يعود على الحُلم الذي جمعه أحلام ، باعتبار أن الإفراد هو الأصل ، فنحن بصدد رؤيا واحدة في الحقيقة ، وان الملأ فرّوا ليس من الرؤيا إلى الحُلم بل ومن الإفراد إلى الجمع . وفي كلّ من الاحتمالين يظلّ السّاقي مقتنعاً بأن ما رآه الملك رؤيا وليس حلماً من الأحلام .

ويفتي يوسف عليه السلام في رؤيا الملك . ونستطيع أن نتمثل فرح الساقي بكل ما أخبره ونصحه به يوسف عليه السلام ونستطيع أن نتمثل أيضاً رضى الملك وسعادته وهدوءَ نفسه وارتياح باله . ويجب أن يكون قد سأل عن اسم ذلك الفتى وحاله ، والسّبب الذي دخل من أجله السجن ، ولماذا بقي فيه كلّ تلك المدّة الطويلة ؟

ونستطيع أن نستنتج أن الساقي كان يجيب عن بعض أسئلة الملك وليس عنها كلها ، إذ نعتقد أن يوسف عليه السلام إنما كان يشكو بثّه وحزنه إلى الله تعالى وليس إلى أي مخلوق ، ونعتقد أيضاً أن خلقه الكريم لم يكن يرضى أن يشير ببنت شفة إلى السّبب الحقيقي في دخوله السجن . وقد كان فتياه في رؤيا الملك المقنعة ، ونصيحته الخالصة ، وعلمه الفائق ، مصدر سعادة الملك وإكباره وتعجبه واقتناعه بأن هناك سرًّا في الموضوع ، فصمّم على الكشف عن ذلك السّرّ ، لأن هناك تناقضاً عجيباً بين شخص بلغ معدنه هذه الدرجة من النقاء من ناحية ووجوده في السجن عدة سنوات من ناحية أخرى .

وهنا يطلب الملك ، ولعله من الملأ . في جلال الحاكم ، أن يأتوه بالفتى يوسف ، فقد أراد أن يتثبت بنفسه في هذه القضية . قال تعالى:﴿ وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم ، قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ . ويرفض يوسف الخروج من السجن ، ويطلب من الرسول أن يرجع إلى الملك وأن يسأله﴿ ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ تاركاً للملك مطلق الحرية في دراسة هذه القضية دراسة موضوعية ومن الزّاوية التي يريد .

وإن ما جاء على لسان الملك من قوله تعالى:﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ ليدل على أن هذا الملك العادل بعد دراسة القضية دراسة مستفيضة ، انتهى إلى معرفة دقائقها الخفيّة وتبين له أن الفتى مظلوم كلّ الظلم ، بريء كلّ البراءة .

وبعد دعوة النّسوة وامرأة العزيز بحضرته يوجّه إليهن هذا السؤال المتضمن علمه اليقيني بحقيقة موقفهن من يوسف ﴿ ما خطبكن إذ راودتن

يوسف عن نفسه﴾ . إن هذا سؤال من انتهى إلى نتيجة أكيدة صحيحة فجهر بالحقيقة على رؤوس الأشهاد ، ولم يخش في الحقّ لوماً .

ونستطيع أن نفهم أن يوسف عليه السلام عرف بثبوت براءته قبل أن يغادر السجن . ومن يدْري ، ربما كان للساقي دور في زف البُشرى إليه .

ومهما يكن الحال ، فقد طلب الملك أن يؤتى إليه بيوسف عليه السلام ، البريء هذه المرة الذي ثبتت أمانته والذي أسيء إليه والذي أراد الملك أن يكفّر عن بعض السوء الذي لحقه من بعض المسؤولين في قُطره . لهذا هو لا يكتفي بالطلب أن يؤتى إليه بيوسف ، كما فعل في المرّة الأولى ، بل عيّن ما يمكن أن نسميه بالكفّارة والجزاء معاً . قال تعالى:﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ . وليس بخافٍ أن الملك يصرّح ، ولعله يصرح بذلك للملأ بأنه سيستخلص يوسف عليه السلام لنفسه هو خاصة لا يشاركه فيه سواه . أليس هو الذي نجح فيما أخفق فيه الملأ فضلاً عن سواهم ، وإن الملك حينما يجيء على لسانه في المرة الأولى قوله تعالى:﴿ وقال الملك ائتوني به ﴾ ويقف عند ذلك ، إنما بني هذا الطلب على أساس اقتناعه بأن ما قاله يوسف للساقي هو التّعبير الصحيح للرؤيا . وحينما يجيء على لسانه في المرة الثانية قوله تعالى:﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ إنما بني هذا الاستخلاص والاصطفاء على ما ثبت له من أمانة يوسف عليه السلام . وإن الملك حينما يجيء على لسانه قوله تعالى:﴿ أستخلصه لنفسي ﴾ ليذكّرنا بما سبق أن جاء على لسان العزيز مخاطباً زوجه من رجاءين في قوله تعالى:﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾ .

لقد كان العزيز ألمعيّاً وكان خليقاً بيوسف عليه السلام أن يكون كما

أمّل فيه العزيز وفوق ما أمل . ولكن الذي حال دون ذلك تصرُّف زوجه . وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون حظ الملك من أمانة يوسف وحفظه وعلمه موفوراً ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ .

وفي سبيل تعيين المتكلّم هل هو الملك أم يوسف في قوله تعالى: ﴿ فلما كلمه ﴾ علينا أن نقيس الجزئية السابقة المماثلة بهذه الجزئية التي جاء فيها المتكلم . لقد جاء في الأولى قوله تعالى: ﴿ وقال الملك ائتوني به ، فلما جاءه الرسول ﴾ فاتضح أن الذي جاء هو الرّسول . وجاء في الثانية قوله تعالى: ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ فدل هذا القياس على أن المتكلم ابتداءً هو الملك وليس يوسف عليه السلام ، وهذا من ناحية دليل على أدب يوسف عليه السلام الذي فطره الله تعالى عليه . فإذا استثنينا التّحيّة الطبيعية التي كان عليه أن يقوم بها ، فإنه وراء ذلك لا يبدأ بالكلام . ومن ناحية أخرى هذا دليل على المنزلة العالية التي احتلها يوسف عليه السلام في قلب الملك الذي يؤانسه بالكلام ابتداءً ولا يحوجه بالانتظار حتى يُضطرّ لأن يبدأ بالكلام .

ونستطيع أن نتمثل إقبال الملك على يوسف وبشاشته في وجهه . بل إننا نستطيع أن نتمثل تشوّف الملك لرؤية يوسف ، الذي سمع عنه خيراً كثيراً ونستطيع أن نفهم أيضاً أن الملك قد تمثّل يوسف في صورة موافقة لما صحّ من أخباره الحسنة . وحينما رآه رأي العين انتهى إلى أن صورته الحسنة الحقيقية أكثرُ موافقةً لسيرته الحميدة من الصورة الحسنة التي تخيله عليها . وماذا قال الملك في كلامه ليوسف ؟ قال تعالى: ﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ . إن الملك ليبدأ حديثه الإيجابي مع يوسف باستعمال إنّ التي تدل على التوكيد ويشتمل كلامه على لفظة « اليوم » الذي وضع نهاية أكيدة للظلم الفادح الذي حلّ بيوسف عليه السلام . ومتى عرَف الملك العادلُ حقيقة وضع يوسف ؟ في تلك الأثناء فقط بطبيعة الحال . ومتى

رأى الملك العادل لأول مرة يوسف ؟ في ذلك اليوم فقط بطبيعة الحال . لذلك كان طبيعياً جدّا أن يتضمن كلامُ الملك لفظ « اليوم » وكأنه باستعماله لهذا اللفظ ، بل بحرصه عليه ، يعتذر إليه عما حلّ به من ظلم وحاق به من عدوان . وكأن لسان حال الملك يقول : لا يد لي فيما نالك قبلُ من ظلم وعدوان . وابتداءً من هذا اليوم الذي أكلمك الآن فيه ، أنا الكفيل بمكافأتك على أمانتك وإحسانك والتّكفير عما اقترفه سواي بحقك ، وإن الملك في قوله « لدينا » ليستعمل ضمير جماعة المتكلمين ، ومن الجائز أنه استعمله تفخيماً على أساس أنه يريد نفسه . وليس هناك ما يمنع أنه يريد نفسه والملأ أيضاً . وعلى هذا تكون نظرة خاصة الملك وأعيان البلاد في الإكبار ليوسف موافقة لنظرة الملك إليه .

وهذا شيء طبيعي جداً . ومن هو الشخص الراجح الفكر الناضج العقل ، الذي يقف على حقيقه موقف يوسف عليه السلام من كل ما مرّ به ، ولا يكون له عنده مكانة خاصة في قلبه ؟ ولهذا جاء على لسان الملك وصف يوسف بأنه ذو مكانة ومنزلة ، ومؤتمن على كل شيء . فقال تعالى:(فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) .

والحقيقة أن رأس البلاد أعني الملك ، يبدو لنا رجلاً حازماً حليماً ، حسن التصرف ، جاهراً بالحق ، ألمعياً مهيب الجانب ، يبدو حزمه وحِلمه من التصرف بأمره — فيما نعتقده — مع كلّ من الخباز والساقي . ويبدو حسنُ تصرفه في القول على لسانه:(يا أيُّها الملأ أفتوني في رؤياي) . فإن هذا قول من يأخذ بمبدأ الشورى ويوقّر أتباعه ومن يبادله أتباعه المثل . ويبدو جهره بالحق من القول على لسانه خطاباً للنسوة . وقد ثبت له براءة يوسف (ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) . وتبدو ألمعيته من موافقة حدْسه في يوسف لحقيقة مخبره . ويبدو جانبه المهيب من شخصيته القوية التي يجب أن تكون لرجل تلك أعماله .

ونستطيع أن نستنتج من كل ما سبق استنتاجين :

الأول : إن الملك الذي هذه تصرفاته يجب أن يجري في جسده دم الملوك الذي ورثه من الآباء والأجداد .

الثاني : إن الرجل العظيم الذي تصدر منه كلُّ هذه التصرفات الحسنة لا يمكن إلا أن يقدّر الرسالة العظيمة التي جاء بها يوسف عليه السلام . خاصة وأن ليوسف في قلبه من المنزلة ما لا يخفى . ومن هنا نحن نعتقد مطمئنين ، أن هذا الملك العظيم واحد من الذين وفق الله تعالى يوسف لإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام .

وقد يقول قائل : ولكن ليس هناك إشارة صريحة في هذه السورة إلى هذا الاستنتاج ، ولم يجيء على لسان هذا الملك مثل ما جاء مثلاً على لسان ملكة سبأ ﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ والجواب على ذلك هو أن شخصية ملكة سبأ في سورة النمل شخصية رئيسية ذات أدوار إيجابية .

أما شخصية الملك في سورة يوسف فليست الشخصية الرئيسية الأولية . وهذا واضح وليست محلَّ العبرة بعكس ملكة سبأ ، وخير دليل على ذلك أنه بانتهاء ما جرى على لسان ملكة سبأ ينتهي كلُّ شيء ؛ إذ تحققت الفائدة المرجوة . أما فيما يتصل بسورة يوسف فإن الإشارات التعقيبية أو الآيات التعقيبية وَقْفٌ على يعقوب ويوسف عليهما السلام .

الشخصيات الرئيسية في قصة يوسف عليه السلام

يعقوب وآله :

الشخصيات الرئيسية في قصة يوسف عليه السلام ، يعقوب وآله الذين لهم في هذه السورة النصيب الأوفى . وهناك بعض الشخصيات التي عرفنا أسماء أصحابها ، كيوسف ويعقوب عليهما السلام ، وقد جاءا في القرآن الكريم ، بينما جاءت أسماء بعض الشخصيات الأخرى في كتب التفسير ، كأسماء إخوة يوسف وأمّه وخالته

وفي سورة يوسف أكثر من إشارة إلى الأدوار الإيجابية الخاطفة ، لبقية آل يعقوب ، الذين لم يحدّدوا على وجه الدّقة . فقد جاءت الإشارة إلى آل يعقوب وإلى الأهل صراحةً أو ضمناً في قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿ وكذلك يجتبيك ربُّك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إنّ ربك عليم حكيم ﴾ . وقوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيُّها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إنّ الله يجزي المتصدقين ﴾ . وقوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ وقوله تعالى عن هؤلاء الأهل: ﴿ قالوا تا لله إنّك لفي ضلالك القديم ﴾ .

ونعتقد أن لهؤلاء الأهل الذين قد نستطيع أن نعيّن بعضهم فقط ، وليس كلّهم ، دوراً إيجابياً من درجة ما ، في دفع أحداث القصة إلى الأمام . فحينما يجيء على لسان الإخوة قوله تعالى: ﴿ مسنا وأهلنا الضرّ ﴾ فإنّ ذكر الأهل هنا ، مما يفجر ينبوع الرحمة في قلب يوسف عليه السلام . فنحن

نرجح أنّ والدة يوسف عليه السلام كانت ما زالت حيّة ترزق . وإن مجيء لفظة الأهل على لسان الإخوة ، التي تشمل بالضرورة والدته كما شملت أباه ، دورها الإيجابيّ في نفس يوسف ، المرهف الإحساس لهذا تضمن كلامه لهم لفظة الأهل في قوله تعالى:﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ وهي تشمل من عرفنا منهم ومن لم نعرف بطبيعة الحال . وإنّ ضمير الجماعة من « قالوا » في قوله تعالى:﴿ قالوا تا لله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ يعود بالضرورة على هؤلاء الأهل وفيهم والدة يوسف عليه السلام . ولكنّ يعقوب عليه السلام وأبناءه الاثنى عشر ، هم الشخصيات الرئيسية بالفعل ، في قصة يوسف عليه السلام . ويتقدّم يوسف الجميع في الأهمية يليه والده يعقوب .

توطئـــة :

كلّ الشخصيات الرئيسية ، ذاتِ الأدوار الإيجابية من آل يعقوب في قصة يوسف قد حدّدتها الآية التي جاءت على لسان يوسف عليه السلام حينما قصّ رؤياه على أبيه . قال تعالى:﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ .

فنحن بصدد إشارة صريحة إلى يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام . وقد فُسرَ الأحد عشر كوكباً بأنهم إخوته ، والشمس بأنها والده والقمر بأنه والدته(١) وهذا يعني أنّ ليعقوب عليه السلام اثنى عشر غلاماً ذكراً . وليس هناك أيّة إشارة إلى أنّ له إلى جانب الذكور إناثاً . وقد ذهب البعض إلى أن له ابنة واحدة (٢) .

وتجمل الإشارة إلى أن إرادة الله تعالى ، الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء قد شاءت ألا ينقصّ في السنوات العديدة التي أتت بين رؤيا يوسف في أوّل السورة ، وتعبيرها في نهاية القصة ، شخصية واحدة من

---

١ ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف ٤١/١ .
٢ ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف ٧١/١ .

الشخصيات التي أشارت إليها آية الرُؤيا . على الرغم من المخاطر التي تعرّض لها يوسف والآلام التي انتابت يعقوب .

كما تجمل الإشارة إلى أنّ المفسرين يذهبون إلى أنّ هؤلاء الإخوة الاثنى عشر ليسوا من امرأة واحدة ، وإنما من أربع ، وأنّ ليوسف عليه السلام شقيقاً واحداً اسمه بنيامين ، وأن يوسف وشقيقه على التوالي أصغر هؤلاء الإخوة (١) .

ومنذ أن يقص يوسفُ رؤياه على والده ويجيبه والده ، نتبين أنّ إخوة يوسف لأبيه لا يُضمرون له في أفئدتهم ودّاً . قال تعالى على لسان يعقوب: ﴿قال يا بُنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إنّ الشيطان للإنسان عدوٌ مبين﴾ وإنا لتساءل : حينما يقول يعقوب : لا تقصص رؤياك على إخوتك : هل يدخل في هؤلاء الإخوة شقيق يوسف ؟ والجواب بالنفي. لماذا ؟ لأنه كان صغير السن جداً ، فلم يعرف آنذاك ، كما لم يعرف بعد ذلك من جانبه عدم الود . وبخاصة عدمُ ودّ الإخوة بعضهم لبعض .

ونتبين من جواب يعقوب ليوسف شيئاً كبيراً جداً من الإشفاق عليه من إخوته فهو يخاطب ابنه في صيغة تصغير التمليح « يا بُنيّ » وهذا شيء طبيعيٌ جداً من يعقوب عليه السلام ، الذي فطر الله تعالى قلبه على الحبّ ، فكيف به وهو يخاطب أحبّ أبنائه إليه ؟ ويعرف أن ما قصه هذا الابن الحبيب ، سيزيد إخوته حسداً إلى حسدهم له ، لهذا هو ينصحه في إشفاق بعدم قصّ تلك الرُؤيا على إخوته .

ولكن كيف تمت تلك النصيحة ؟

إن يعقوب يقول لابنه الحبيب بملء فيه: ﴿ لا تقصص ﴾ فهو ينهاه نهياً مباشراً صريحاً لا غموض فيه ولا إبهام بعدم قصّ رؤياه على إخوته . إنه

---

١ ـ انظر هنا مثلا الكشاف ١٢٤/٢ والبحر المحيط ٢٨٢/٥ .

لا يقول مثلا « يا بُنيّ ، أرى ألا تقص رؤياك . . » فيكون ليوسف شيء من إبداء الرأي في هذه المسألة إن كان له رأي .

ونحن نتساءل : لماذا لم يُعط يعقوب ابنه يوسف فرصة المشاركة في هذه المسألة ؟ والجواب على ذلك أن يعقوب قد ثبت له بصفة أكيدة أن الإخوة لا يحبون يوسف ، ولو قصّ عليهم رؤياه لتمادوا في حسدهم ، وربّما تورّطوا مع يوسف فيما لا تُحمد عقباه .

ويعقوب لا يدع لابنه يوسف فرصة سؤاله « لماذا لا أقصّ رؤياي على إخوتي ؟ فلا يُرسِلُ كلامه دون تعليل . وإنّ تعليله قمّة في وضوح الدلالة وبيان السبب . فقد جاء على لسانه قوله تعالى: (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) والمعروف أنّ الفعل يكيد يتعدّى بنفسه ، وقد ضمّنه هنا معنى ما يتعدّى باللام . فكأنه قال : فيحتالوا لك بالكيد . والتضمين أبلغ لدلالته على معنى الفعلين(١) وللمبالغة في الدلالة أتى بالمصدر « كيداً » المؤكّد للفعل، ولم يفتْ يعقوبَ عليه السلام التنبيهُ إلى أنّ هؤلاء الإخوة بطبعهم ، ليسوا شرّيرين ، ولكنّ الشيطان الرجيم ، الذي يجري من الإنسان مجرَى الدم ، العدوَّ البينَ العداوة للإنسان ، هو الدافع الحقيقي للإنسان على ارتكاب الشرور والآثام وهذا التنبيه دليلٌ على طيب قلب يعقوب وطهر نفسه .

ولا شك أن هذه النصيحة لعبت دورها البعيد المدى في نفس يوسف ، ولا شك أن نفسه البريئة الطيبة الطاهرة ، وقد أوضح له والده ، البارّ بأبنائه جميعاً الدور الذي يمكن أن يلعبه الشيطان ـ عليه لعنة الله ـ في الإفساد بين الإخوة ، كانت تجاه إخوتها هي النفس البريئة الطيبة الطاهرة . فلم يُرد يعقوب عليه السلام سوى الخير لكل أبنائه .

ونعتقد أن هذه هي المرّة الأولى ، وهي المرّة الأخيرة أيضاً ، التي نهى

---

١ ـ البحر المحيط ٥/٢٨٠ .

فيها يعقوبُ يوسف عن إخبار إخوته بشيء يخصّه . ونعتقد أن يعقوب كان يعمل جاهداً على أن يغرس في قلوب الأبناء محبة بعضهم لبعض . وليس شيء يسوء الأب ، وبخاصة إذا كان يعقوب عليه السلام ، كما يسوؤه عدم الوفاق بين أبنائه .

لقد خاف يعقوب على إخوة يوسف لو عرفوا برؤياه ، التي تدلُّ على أنه سيكون ليوسف عليه السلام ، شأن دينيٌّ ودنيويٌّ معاً ، أن يشقَوْا العُمرَ بأكمله ، بسبب تورطهم بحقه في شيء يسوؤه . وكان خوف يعقوب كبيراً ، أن يكون يوسف ، أحب أبنائه إليه ، غرضاً لهم . وهكذا فمصدر نصيحة يعقوب الحبَّ لأبنائه جميعاً . ولا يتعارض ذلك مع حقيقة أن الله تعالى قد وضع في قلبه ، ممّا لا دخل له فيه ، من المحبة ليوسف والشقيق ما ليس للإخوة .

وإذا نظرنا من زاويتنا لهذا الحبّ ليوسف وشقيقه فإنا نجده طبيعياً ، فقد جرت العادة بأن يستأثر صغار الأبناء ، خاصة حينما يكون الأبوان متقدّمين في السّنّ ، بأكثر الحبّ ، لأنهم أولى الأبناء بذلك وأكثرهم حاجة . فكيف إذا ثبت بفراستهما أو بفراسة أحدهما ، أنّ هذا الصغير أو ذاك له من المنزلة الدينية والدنيويّة ما ليس لأحد من إخوته ؟ والذي ينتظر من يعقوب الذي أيقن أنّ ابنه الحبيب يوسف ، قد اصطفاه الله بخيري الدنيا والآخرة أن يكون أكثر تعلّقاً به .

وإذا كان تعليل يعقوب عليه السلام السابق البليغ الموجز ، متعلّقاً بذات أنفس الإخوة ، فإن لهذا التعليل شطراً آخر يميل إلى الطول ، متعلّقاً بذات نفس يوسف .

فقد جاء على لسان يعقوب قوله تعالى: ﴿ وكذلك يجتبيك ربُّك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إنّ ربّك عليم حكيم ﴾ .

لقد أدرك يعقوب بأن رؤيا يوسف لا يمكن أن تكون أضغاث أحلام ، على الرغم من أن يوسف غلام صغير السن حقاً ، وأن هذه الرُّؤيا ستعبّر في الحقيقة ، ولكن بعد وقت ما ، وأن ابنه قد اصْطفِيَ لأمور عظام : بيّنها يعقوب في القول على لسانه . أي ومثلُ ذلك الاجتباء بالرُّؤيا الطيبة الصادقة ، يجتبيك ربُّك ، بما تدل عليه هذه الرؤيا بالمنزلة الدينية العالية ، وليس وراء منزلة النّبوّة منزلة ، وبشيء من الملك أيضاً .

وبما أن أوّل ما لاح ليعقوب من الدلائل على منزلة يوسف مستقبلا هو الرؤيا الصادقة ، فقد فهم نبيّ الله ، ببصيرته النّيرة وبإيحاء من الله تعالى ، أن ابنه الذي سيصطفيه أحكم الحاكمين بالنّبوّة ، سيمنّ عليه بالقدرة على تأويل الرؤى ، ولهذا جاء على لسانه ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ .

وقد كان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصحّهم عبارة(١) .

وبما أن الرؤيا تدلّ على أن يوسف سيُجْمَعُ له خيرا الدنيا والآخرة ، فقد آتاه الله في المستقبل النبوّة وشيئاً من الملك لذلك جاء على لسان يعقوب قوله تعالى:﴿ ويتّم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ﴾ وإن ما أنعم الله تعالى به على يوسف إتمام لنعمه التي لا تُحصى ، على يوسف وآل يعقوب عموماً .

أليس يوسف فرداً من آل يعقوب ؟ أليست النعمة التي تحلّ بواحد منهم يشملهم خيرها ويعمهم نفعها ؟ وهل هناك نعمة تضارع نعمة النبوة ؟ فكيف إذا جمع لفرد منهم النبوة مع شيء من المُلك ؟ . وهذه النعم امتداد لنعمه تعالى التي لا تُحصى .

ولهذا جاء على لسان يعقوب ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ﴾ . وإتمام النعمة على إبراهيم بالخُلّة والإنجاء من النّار وإهلاك عدوه نُمْرُوذ ، وعلى إسحاق بإخراج يعقوب والأسباط من صُلبه . وسَمّى الجدّ وأبا الجدّ أبوين لأنهما في عمود النسب(٢) . وجاءت أخيراً هذه

---

١ ـ البحر المحيط ٥/٢٨١ .

٢ ـ البحر المحيط ٥/٢٨١ .

الجزئية التعقيبية ﴿إن ربك عليمٌ حكيم﴾ والمراد أنّ الله تعالى عليمٌ بكل شيء ، ومن بين ذلك من يستحق الاجتباء ، وأنّ كل شيء يجيء على جهة الإحكام والإتقان منه تعالى .

من هذه التوطئة بين يدي دراستنا للشخصيات الرئيسية من آل يعقوب يتضح لنا تفاعل هذه الشخصيات البعيد المدى، بسبب قضايا معينة ، وبما أن التفاعُلَ ، خلال القصة ، غايةٌ في القوة بين الإخوة من ناحية ويعقوب عليه السلام من ناحية أخرى . وبين الإخوة أنفسهم أيضاً . وبما أن يوسف عليه السلام منذ أخذ إخوته له معهم كي يرتع ويلعب كان المحرّك لكلّ أحداث القصة ، والمحرك لما يجري في بيت آل يعقوب ، ولكن من بعيد ، لذلك سنجمع في دراسة الشخصيات بين يعقوب وإخوة يوسف من ناحية ، وسنتناول يوسف عليه السلام بالدراسة في فصل مستقلٍّ خاصٍّ به .

والآن إلى . . .

يعقوب عليه السلام وإخوة يوسف

تآمر اخـوة يوسف لأبيه عليه :

قال تعالى:﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسّائلين ، إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلالٍ مبين ، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيّارة إن كنتم فاعلين ﴾ .

إن أولى هذه الآيات الأربع ، تشير إلى العلامات والدّلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كلّ شيء للسائلين عن يوسف وإخوته .

وإن ثاني هذه الآيات تنقل أوّل تعبير صريح مباشرٍ من الإخوة متضمن بعدم رضاهم عن حبّ يعقوب الفائق ليوسف وأخيه .

قال تعالى:﴿ إذ قالوا ليوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ .

إن هؤلاء الإخوة ليبدؤون أوّل كلامٍ لهم بلام الابتداء الداخلة على اسم يوسف الصريح ، وفيها تأكيد لمضمون الجملة من قولهم:﴿ ليوسف وأخوه . . ﴾ .

والمراد أن كثرة حبّه لهما ثابت ولا غبار عليه . والمتأمّل لهذه الآية يتبين أن هذا هو رأي كلّ إخوته لأبيه العشرة ، لا فرق في ذلك بين كثير الحسد له ومتوسطه أو قليله .

ومن أيّ الزّوايا نظر الإخوة إلى هذه المسألة ؟ من زاويتي العدد والنفع وغفلوا عن حقيقتين أخريين مُهمّتين :

أولاهمـــا :

أن يعقوب عليه السلام لا يد له في كون قلبه أكثر ميلا إلى يوسف وأخيه ، كما أنه لا يد له في كون قلبه أكثر ميلا إلى يوسف من أخيه ، إنه لا دخل له في هذا الحبّ ، تماماً كما لا دخل له في الحزن الذي حلّ به لغياب يوسف عنه أولاً ثم شقيقه ثانياً .

وهل كان حزن يعقوب على يوسف إلا موافقاً ومساوياً لحبه له ؟

وهل كان حزنه على الشقيق إلا موافقاً ومساوياً لحبه له ؟ وهل كان في وسع يعقوب الذي ابيضت عيناه من الحُزْن دفعُ ما حلّ به من حُزن وما انتابه من ألم ؟

لو كان قادراً على الإمساك بزمام حزنه لكان قادراً على الإمساك بزمام حُبّه . فدل عجزه هنا على عجزه هناك . وثبت أن الحب والحزن قَدَرٌ عليه .

والشيء الذي نقوله بكل ثقة واطمئنان : إن نبيّ الله يعقوب ، كان قمة في العدل بين أبنائه في المعاملة . وإنّ عدم رضا الإخوة مقصور على ميل قلب يعقوب الفطري وما استتبع ذلك مما لا قدرة له على دفعه .

وثانيتهمـــا :

أن يوسف وأخاه على التوالي أصغر أبناء يعقوب الاثني عشر . وإنه لشيء طبيعيّ أن ينال صغار الأبناء من المحبّة والرّعاية ، لاستحقاقهم لذلك وحاجتهم له أكثر من كبارهم .

لقد كان خليقاً بإخوة يوسف أن ينظروا إلى هذه المسألة من هاتين الزاويتين .

والذي حدث هو أنهم نظروا إلى المسألة نظرةً عقلية صِرْفة . إنهم يجعلون يوسف وأخاه في كفّة ، وهم جميعاً في كفة أخرى .

ومن زاوية هذه النظرة العقلية ، هم يستحقون ما لا يستحقّ يوسف

وأخوه . إن يوسف وأخاه اثنان ، وهم عشرة . والعدل في نظرهم يقضي بألاّ ينال الاثنان ما ينال العشرة ، فكيف إذا كان نصيب الاثنين أكثر من نصيب العشرة ؟ .

وإن نظرتهم العقلية تجعلهم ينكرون هذا الحبّ لهذين الغلامين الصغيرين اللذين لا يجلبان نفعاً ولا يدفعان شراً : بينما هم العشرة ، الذين تُعْصَبُ بهم الأمور وتُدفع الشدائد ، لا ينالون حظّاً مما ينال الاثنان والاثنان فقط .

فلنتأمّل بروّية ما يقوله هؤلاء الإخوة . وأول ما يلاحظ أن هؤلاء الإخوة يجيء على لسانهم « وأخوه » من قولهم:(ليوسُفُ وأخوه) . إنهم لا يقولون مثلا:« ليوسف وشقيقه » لأن هذا لا يضيف جديداً إليهم ، لأنهم حينما يذكرون اسم يوسف ، الأخ الحادي عشر ، لم يبق سوى شقيقه بنيامين . كما نود أن نقف عند ضمير المفرد الغائب مِنْ « وأخوه » فقد كان من الجائز ، لو كانت هناك مودّة ، أن يقولوا : و « وأخونا » خاصة وأن ضمير جماعة المتكلمين أتى في هذه الآية أكثر من مرة .

ولكنّ الجوّ مشبّع بغير الودّ ، وقد أتى الإخوة بضمير المفرد الغائب في قولهم:« ليوسف وأخوه » الذي يهدف إلى الغرض الذي إليه يقصدون ، وهو عزل يوسف وأخيه ، وجعلهما كتلة واحدة منفصلة صغيرة كي تبدو من المقابلة كتلتهم الكبيرة .

ثمّ إنّ الإخوة يجيء على لسانهم (أحبّ إلى أبينا منّا) ولا يجيء ، وهو الأوْلى لو أن الجوّ ودّيّ « ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبيهما منا » .

وإن حرص الإخوة على ضمير جماعة المتكلمين ، في قوله تعالى على لسانهم:(أحبُّ إلى أبينا) ليدل على اعتداد هؤلاء الإخوة بأنفسهم وشعورهم بثقل وزنهم .

وإن الانتقال من ضمير المفرد الغائب إلى جماعة المتكلمين في هذه

الآية له دور كبير في شدّ الانتباه إلى حب يعقوب ليوسف وأخيه بالذات ، وإظهار القضية بأنها غير عادلة ، مع أن الحقيقة غير ذلك .

والحسد هو الذي صوّر لهم غير شيء شيئاً وزيّن لهم عَقْدَ هذه المقارنات غير صحيحة الأساس .

ولو أنهم كانوا عادلين لقالوا: « أحب إلى أبيهما منا » فيكون ليوسف وأخيه بسبب ضمير التثنية نصيبٌ عادل في كون يعقوب والدهما ، تماماً كما للإخوة نصيب في ذلك من ضمير جماعة المتكلمين في قولهم: « منا » .

إن الحسد ليجعلهم يؤثرن أنفسهم بضميرين لجماعة المتكلمين ، ولا يعطون الصغيرين حقاً .

وإن الشعور بالوزن الذاتي ليبدو القمة في قوله تعالى على لسانهم: ﴿ ونحن عصبةٌ ﴾ فنحن بصدد ضمير جماعة المتكلمين المنفصل « نحن » ذي الدلالة البعيدة المدى ، ولفظة « عصبة » الثقيلة الوزن ، التي ترجح كفتها بالكفة التي فيها الغلامان الصغيران الضعيفان « يوسف وأخوه » .

وما دامت القاعدة خاطئة فالذي يُبْنى عليها خاطيء أيضاً . لهذا جاء بناءً على تلك المقارنة غير العادلة هذا التعليق على لسان الإخوة ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ وواضح أننا ما زلنا مع ضمير جماعة المتكلمين ، فليس ليوسف وأخيه ، حتى هذه اللحظة شيء من نصيب . وهم يبدؤون تعليقهم بإنّ التي تفيد التوكيد ، كما دخل على الجار والمجرور لام التوكيد . وهناك لفظة الضلال ، ومعناها ، والله أعلم ، الخاطيء من الرأي و « مبين » صفة للضلال .

والشيء الذي نود توكيد الإشارة إليه هو أن هذه الآية تبين صراحة رأي عشرة من أبناء يعقوب الاثنى عشر . ولم يخرج من هذا الإجماع واحد منهم . وليس الأمر كذلك بالنسبة للآيتين التاليتين . قال تعالى عن هؤلاء الإخوة : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم

وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إنْ كنتم فاعلين) .

ويلاحظ أن هؤلاء الإخوة العشرة يطرحون الشقيق جانباً ويخصون يوسف بالذكر ، فلماذا ؟ مع أن الشقيق شريك يوسف في حُبِّ يعقوب لهما . ولا يخفى أن يوسف ينفرد بالحب الأكبر ، وكان حسد الإخوة له موافقاً لحب يعقوب له . ولهذا تَحَوَّا الشقيق الآن جانباً وركزوا القول في يوسف .

وإن هاتين الآيتين لتصوران لأبناء يعقوب أربعة مواقف :

أولا : موقف العاقل . ويمثله يوسف وشقيقه .

ثانياً : موقف جماعة من الإخوة ، يعتبرون القمّة في حسد يوسف وكرهه . ويمثل هذه الجماعة قوله تعالى على لسانهم :(اقتلوا يوسف) . ويلاحظ أنها هي التي ابتدأت بتوجيه الحديث إلى يوسف وتخصيصه به وإغفال شقيقه . وذلك دليل بيّن على مدى الكره له .

ثالثاً : موقف جماعة من الإخوة يتممون التسعة من المجموع ، يعتبرون أقل كرهاً ليوسف بالذات من سابقيهم . ويمثل هذه الجماعة قوله تعالى على لسانهم :(أو اطرحوه أرضاً) والمراد اطرحوه أرضاً بعيدة مهلكة مخوفة .

رابعاً : موقف القائل الأخير ونرجح أنه كبيرهم ، الذي يعتبر أقرب الإخوة مودّةً ليوسف . قال تعالى عن هذا الأخ :(قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) . ومعنى هذا أن موقف إخوة يوسف لأبيه منه ليس واحداً ، وأن هذا الخلاف البسيط سيكبر أخيراً حينما ينشقّ كبير الإخوة على الإخوة ويبقى في مصر حيث عزيز مصر وشقيق يوسف ويعود الإخوة إلى يعقوب دونه .

ويلاحظ أن القائل اعتبر رأيي الجماعتين الأوليين رأياً واحداً ، هو القتل : « لا تقتلوا يوسف » ولهذا مغزاه الذي سنبينه مستقبلا .

اخوة يوسف لأبيه ليسوا شرا محضا :

حينما نتأمّل أولى الآيتين ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فإنه يتضح أن هؤلاء الإخوة التسعة لا يبدون شرًّا محضاً . إنهم وإن كانوا يمثّلون الشر في قمّته ، إلا أنهم في الوقت نفسه يمثلون الخير في أول بذوره . وما كان ينبغي لواحدٍ من أبناء يعقوب نبيّ الله ، في اللحظة التي لا يكون فيها الشيطان غائباً ، أن يكون شرًّا محضاً . وإليك بَيانَ ذلك :

إن هؤلاء الإخوة المصمّمين على التخلُّص من يوسف لفرط حسدهم له . في الوقت الذي يفكّرون في طريقة التخلص من يوسف ، وقبل التنفيذ ، هم يفكرون في عودتهم مستقبلا ، بعد التخلّص من يوسف ، قوماً صالحين . وكيف يتمّ ذلك ؟ يتم بعد توبة نصوح . ألم يأت على لسانهم قوله تعالى: ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ ؟ لا . ليس ذلك فحسب . بل إن هناك سبباً آخر وجيهاً في الدلالة على أن ما اقترحه الإخوة للتّخلص من يوسف كان نزوة طائشة طارئة ما لبثت أن خبت سريعاً . وفي سبيل تبيين ذلك لنتأمّل الضمائر التي استعملها الإخوة العشرة في الآية السابقة « إذْ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عُصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين » .

إن ضمائر المتكلمين متصلة ومنفصلة هي التي تسيطر على جو الآية . ويلاحظ أن الإخوة استعملوا ضمائر المتكلمين هنا لأن المسألة لا تعدو التعبير الانفعالي الحانق .

والآن لنتامّل الضمائر التي استعملها في الآية التالية تسعة منهم ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ .

ما هذا ؟ إن ضمائر المتكلمين تختفي ، نعم إنها تختفي كي تحلّ محلها ضمائر المخاطبين . إن الإخوة لا يقولون مثلا : لنقتلْ يوسف أو لنطرحه أرضاً يخلُ لنا وجه أبينا إلى آخر ذلك . فما معنى هذا ؟ وعلام يدل ؟ معنى هذا أن الذين يقترحون القتل يكتفون بمجرّد الاقتراح ، ويريدون من الفئة الأخرى التّنفيذ . والذين يقترحون طرحه أرضاً يكتفون أيضاً بمجرّد الاقتراح ، ويريدون من الفئة الأخرى التّنفيذ . هؤلاء يقولون لأولئك ، وأولئك يقولون لهؤلاء: ﴿ يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ . هؤلاء يريدون من أولئك أن يتورّطوا في قتل يوسف ، ولعلهم رفضوا ذلك فعلاً . على الرّغم من ذكر السّبب الموجب لذلك ﴿ يخلُ لكم وجه أبيكم ﴾ . والإشارة الصريحة إلى باب التوبة المفتوح دائماً : « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . وأولئك يريدون من هؤلاء أن يتورّطوا في طرح يوسف أرضاً بعيدة مخوفة ، تحقق الغرض نفسه ، وإن اختلفت الوسيلة الأخف وطئاً من الأولى ، ولعلهم رفضوا ذلك أيضاً ، على الرّغم من ذكر السّبب الموجب لذلك ، والإشارة الصريحة إلى باب التوبة المفتوح دائماً تماماً كما فعل السابقون . أما علام يدلُّ ذلك ؟ فعلى أن هؤلاء الإخوة ليسوا شرًّا صِرْفاً .

وإن من أقوى الأدلة على ذلك ، أن أصحاب الرأي بقتل يوسف وأصحاب الرأي بطرحه أرضاً ، قد تنازلوا عن رأيَيْهم ، واتفقوا جميعاً وبمنتهى السُّرعة واليسر والبساطة على رأي الأخ القائل الذي أشارت إليه الآية التالية مباشرة: ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ . ثم إن هذه الجزئية على لسان القائل: ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ينال هؤلاء الإخوةُ منها شيئاً .

وكأن المعنى ، فيما يخصّهم : إن كنتم فاعلين شيئاً ما للتخلص من يوسف ، كي يخلو لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ، فإن هناك

الرّأي الذي ارتأيته عليكم والذي غاب عنكم . ولعل لسان حاله يقول : لو عرَض لكم هذا الرّأي ابتداء فلربما استعضّم به عن الرّأيين القاضيين بقتل يوسف أو طرحه أرضاً . بل إن هذا الأخ لم يكن ليعرض رأيه بهذا الاطمئنان والقوة لو لم يكن عنده شبه اعتقادٍ بقبول هؤلاء الإخوة رأيه .

وما معنى قبول هؤلاء الإخوة رأي أخيهم الأكبر وتنازلهم بكلّ بساطة ويُسرٍ عن الرأيين السابقين ؟ معنى ذلك ما سبق أن أشرنا إليه من أن بذرة الخير ، في هؤلاء الإخوة ، موجودة .

وفي الوقت نفسه ، نحن لا يمكن إلا أن نصف الرأيين الأولين بأنهما شريران . فما معنى أن يطرح جماعة من الإخوة فكرة قتل أخ لهم للنظر والدّرس ؟ وما معنى أن يطرح جماعة من الإخوة آخرون فكرة طرح هذا الأخ أرضاً ، أقلُّ ما تُوصف به أنّها مهلكة ، للنظر والدّرس ؟ معنى ذلك أن هؤلاء وأولئك ، كان من الجائز ، لو لم يكن هناك الأخ الأكبر الملطف للجو ، أن يتورّطوا في هذا أو ذاك ، ثمّ يندموا ولات ساعة مندم .

ونحن نتساءل : هل هناك فرق جوهريٌّ بين الفكرة الأولى القاضية بقتل يوسف والفكرة الثانية القاضية بطرحه أرضاً ؟ حينما نساير المألوف ، فإن الفرق بين الفكرتين يتركز في أن الأولى تُعتبر قتلاً مباشراً ، والثانية تعتبر قتلاً غير مباشرٍ .

ولتوضيح ذلك نتساءل : لماذا نكر الإخوة « أرضاً » فيما جاء على لسانهم (أو اطرحوه أرضاً) ؟ إنهم نكّروا اللفظ لأن هذه الأرض لما تعيّن بعد . وهُمْ على علم تامّ بأكثر من أرضٍ مهلكة . أليسوا مجموعة من الفتيان يذهبون عادة في كلّ ناحية للاستباق والرّياضة ؟ ومع ذلك فهؤلاء في انتظار الرأي الذي ترجحه أكبر مجموعة منهم في تعيين الأرض التي تلك صفتها .

ولو سايرنا المألوف ، وتصوّرْنا أن هؤلاء الإخوة ، قد طرحوا بالفعل

أخاهم يوسف الأرض التي تلك صفتها . فما النتيجة الطبيعية ؟ النتيجة الطبيعية هي الهلاك . ولعله يتمّ في صورة أبشع من القتل الذي تمثله الفكرة الأولى . خاصة إذا عرفنا أن تلك المنطقة تنتشر فيها الذئاب ، ذاتُ حاسة الشّمّ القويّة . فكيف لو صادف واحدٌ منها أو اثنان أو مجموعة ، الغلام يوسف ؟ وكيف به لو صادفه غيْر هذا الحيوان من الأخرى الكاسرة . وكيف به لو كان العطش والجوع ، وأخذ يموت منه جزء بعد جزء موتاً بطيئاً ؟

والآن فلننعم النظر في الآية التي جاءت على لسان الأخ الأكبر ، ولنتأملها من الزّوايا الممكنة . قال تعالى : ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيارة إن كنتم فاعلين﴾ .

وأول ما نقف عنده قول الأخ: « لا تقتلوا يوسف » إن هذا الأخ الذي وضع الله تعالى في قلبه كمية ضئيلة من الود ليوسف ، ليرفض بشدة الرأيين ، ويعتبرهما قتلاً ، سواء في ذلك قتل يوسف بطريق مباشر أو غير مباشر . ومن ثم هو ينهاهم بقوةٍ ووضوحٍ واستقامة عن التورّط في جريمة قتل نفس حرّم الله قتلها إلا بالحقّ . وما معنى أن يسوّيَ هذا الأخ بين الرأيين ، ويجعل الطرح أرضاً بمنزلة القتل المباشر ؟ مع أنه من المحتمل أن ينجو الغلام يوسف من الأرض المهلكة .

وهذا الاحتمال وإن كان ضئيلا جداً ، إلا أنه يظلّ يزاحم الاحتمال الراجح ، فلا يجعله وحيداً ، ولكن شبه وحيد . ولا يجعله أكيداً ولكن شبه أكيد .

إن معنى تسوية هذا الأخ الرّأي الثاني بالأول ، هو أن نزعة الخير ، الضئيلة الآن عنده تجعله يفترض أسوأ الفروض ، وبالتّالي لا يكون في تصوّره الاحتمال الضئيل الباهت بنجاة يوسف الصّغير السن حقّاً آنذاك إذا ما طرح أرضاً مهلكة .

إن نزعة الخير الضئيلة عنده ، لا تجعل من الممكن في تصوره ، لوطرح يوسف أرضاً . أن ينجو مثلا على أيدي أناس يمرون بطريق المصادفة بتلك الأرض . إن هذا الاحتمال ، البعيد الوقوع جدّاً وما شابهه . مما هو أقرب إلى الخيال ، لا يخطر البتة ببال هذا الأخ . وإن الذي يخطر بباله فقط ، انطلاقاً من نزعة الخير الضئيلة فيه ، هو النتيجة الطبيعية المنطقية ، لطرح غلام صغير أرضاً مهلكة . ومن هنا سوى الرأي الثاني بالأول ، ولأن النتيجة واحدة ، اعتبرهما رأياً واحداً ، ومن هنا رفض هذا الرأي بقوله في وضوح تام:﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾

وإن نزعة الخير الضئيلة عنده تجعله يقترح رأياً للتخلص من يوسف ، كلّ ملابساته تشير ، إلى أن الأمور لو سارت كما تصوّرها ، لكانت نجاة يوسف هي الرّاجحة ، بل هي الوحيدة .

قال تعالى:﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ . فما معنى قوله:« وألقوه » ؟ . الحقيقة أنّ الأخ الذي أطلق هذه الجملة ، كان مدفوعاً بحرارة مناقشة إخوته لهذه المسألة . إنّهم يقترحون قتل يوسف أو طرحه أرضاً ، وهو يريد إنقاذ حياة يوسف ، والتخلّص منه ، وإرضاء إخوته المندفعين بحماس متطرّف. فلم يشأ أن يستعمل مثلاً جملة « واجعلوه » أو « وَضَعُوه » ، فلعلّ الإخوة الحانقين على يوسف لا يرضيهم تعبير كهذا ، لهذا جارى إخوته في ابتداء عرض اقتراحه فاستعمل تعبيراً حماسيّاً يرضى عنه إخوته المتحمّسون ، لأنّه يُظهرُ فجوة الانتقال من رأيهم إلى رأيه ليست كبيرة ، وهذه براعة من هذا الأخ . والذي يدلّ على أنّ هذا هو عين المراد أنّ الآية القرآنية التي تشير إلى عملية التنفيذ تستعمل جملة « أن يجعلوه » في قوله تعالى:﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ ﴾ .

وبعد إرضاء الإخوة المتحمسين باستعمال جملة « وألقوه » تأتي عملية

توضيح الفكرة (وألقوه في غيابة الجبّ) وإنه لا يقول:« وألقوه في الجبّ » وهو البئر التي لما تُطْوَ بعد ، فيفهم من ذلك أن المراد إغراق يوسف بإلقائه في ماء الجبّ ، ولا فرق بناء على ذلك بين الرأيين الأوّل والثاني وهـذا الرّأي .

فما المراد بالغيابة ؟ « قال الهرَوي : الغيابة في الجبّ : شبه لِحْف(١) أو طاق في البئر فويق الماء ، يغيب ما فيه عن العيون ، وقال الكلبيّ ، الغيابة تكون في قعر الجبّ لأن أسفله واسعٌ ورأسه ضيق فلا يكاد الناظر يرى ما في جوانبه . وقال الزمخشري : غوْره ، وهو ما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله (٢) » والذي نعتقد أنّ غيابة الجب يجب أن يكون من مقوماتها عدم الظهور الكامل لمن يوضع فيها ، كالغلام يوسف مثلا ، وأن يكون من يوضع فيها بمأمن من الغرق ، . وفي الوقت نفسه يستطيع أن يشرب من الماء حينما يحتاج إليه . و بناء على كل ذلك لا نرى مانعاً من قبول تعريف الهرويّ للغيابة من أنها شبه لِحْف أو طاق في البئر فويق الماء يغيب ما فيه عن العيون .

وفي ضوء المناسبة التي نحن بصددها ، حبذا لو عدّلنا في العبارة قليلا فقلنا:« يكاد يغيب من فيه عن العيون » . ولا نستبعد أن لظلمة الجبّ الطبيعية ، سبباً في عدم وضوح الرُّؤية ، إضافة إلى طبيعة تكوين الغيابة .

وإن كان هناك من شيء ينبغي الإشارة إليه ، فهو أنّ هذا الجب ، يجب أن يكون بمقدور الذي يوضع فيه أن يتنفس بسهولة . وبما أنّ يوسف عليه السلام ، قد وضع في غيابته ، دون أن يتعرّض من هذه الناحية لأي تعب ، فمعنى ذلك أنه يمكن استنتاج أن ذلك الجب كان محدود الغَوْر .

وفي ضوء هذه المعلومات عن الغيابة والجب ووصول يوسف في الغيابة

---

١ ـ اللحف : بالكسر : أصل الجبل .

٢ ـ البحر المحيط ٥/٢٨٤ .

سالماً ، نستطيع أن نفهم يقيناً أن الأخ القائل « وألقوه » يريد في أعماقه « واجعلوه » .

فإذا تحوّلنا إلى لفظ « الجب » فإن الذي يلفت انتباهنا حقّاً هو مجيء هذا اللفظ معرّفاً بأل العهدية . إنه لا يجيء على لسانه مثلا « وألقوه في غيابة جبّ » بصيغة التنكير ، كما نُكرت الأرض في الاقتراح الثاني ، كي يقال إن على الإخوة أن يبحثوا عن جب ما ، لوضع يوسف فيه .

وما معنى المجيء بالجب معرّفاً بأل العهدية ؟ معناه أن الأخ الذي وضع الله تعالى في قلبه الكمية القليلة من الودّ ليوسف ، والذي رفض بعنف الاقتراحين الأوّلين ، لا يقف موقفاً سلبيّاً ، ولكن يقدم الاقتراح الذي يضمن به التخلص من يوسف دون أن يناله أيُّ سوء .

ومعناه ألقوا يوسف في غيابة ذلك الجب المعهود لنا جميعاً ، والذي اعتدنا الذهاب للمكان القريب منه للاستباق والرياضة .

إذن لا يجهل واحدٌ من الإخوة حقيقة ذلك الجبّ . وما معنى كون الإخوة يرتادون ذلك المكان عادة ؟ معناه أنه ليس مكاناً مهجوراً بل مأنوساً . ولماذا هو مأنوس ؟ لأنّ الجبَّ القريب منه فيه ماء . ويُفهمُ ضمناً من تعريف الجب ، ومعرفة كل الإخوة له ، أن سواهم يعرفه أيضاً ، وأنهم في العلم به ، وبالماء الذي فيه شركاءُ مع سواهم .

وبما أن هؤلاء الإخوة يذهبون إلى المكان القريب من الجبّ ويَرِدُون ماءه ، فكذلك يقوم سواهم بالصنيع نفسه . لا ليس ذلك فحسب ، بل إن هناك طريقاً تذرعها القوافل ذهاباً وإياباً وهنا تجيء على لسان الأخ مباشرة هذه الجزئية (يلتقطه بعض السيارة) التي تعتبر تبييناً للجب الذي جاء معرّفاً ، وتحديداً للسّبب الذي اختير من أجله ، إن صَحّ أن غاب عن البعض ذلك السّبب ، وهو ضمان سلامة يوسف ، والاكتفاء بالتخلّص منه . والتخلّص منه فقط .

وما معنى أن يكون الجبّ آهلا بالواردية ؟ معناه أنه ليس في خطورة الجبّ المهجور . فإذا كان الجب المهجور مثلا مظنة استيطان بعض الآفات به فإن الجبَّ غير المهجور يقلّ احتمال ذلك به كثيراً .

ونود الآن أن نقف عند لفظة بعض من هذه الجزئية ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ إن هذه اللفظة ذات دلالة بعيدة المدى . فهي من ناحية تدل على أنّ هناك بالقرب من ذلك الجب ، طريقاً تسلكها السيارة تباعاً وباستمرار . ولو فرض أنّ سيارة واحدة لم تحتج الماء ، وهذا أمر نادر الحدوث ، فإن السيارة التي تليها ، أو الثالثة ، يجب أن تحتاج الماء ، و بالتالي سوف تلتقط الغلام يوسف ، الذي لن يطول مكثه في الجب في أسوأ الأحوال عن الوقت المحتمل . ومن ناحية ثانية هي تدل على الكمّيّة القليلة من الودّ التي وضعها أرحم الراحمين في قلب هذا الأخ لأمر يريده .

وهكذا يتّضح أن هذه الجزئية ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ تعتبر تبييناً واضحاً ينطوي على شيء كبير من الرّحمة لعملية جعل يوسف في غيابة الجب . وأن مجيء لفظ الغيابة ، يدلّ على أن المراد وضع يوسف بمنجاة من الغرق في تلك الغيابة ، التي يمكن أن يشمّ فيها الهواء ، ويشرب الماء . أما الطعام فلن يكون انتظاره طويلا ، لأن السيارات التي ستمرّ ، لن تعدم واحدةٌ منها الحاجة إلى الماء ، وستبعث بواردها ، وسيجد الغلامَ يوسف . وأول ما سيقدّم له الطّعام .

ويأتي على لسان هذا الأخ مباشرةً هذه الجزئية ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ . وأول ما نود الوقوف عنده هو أنّ هذا الأخ لا يقول:« إن كنّا فاعلين » ولكن « إن كنتم فاعلين » . فدلّ ذلك على أنه أخرج نفسه وحيداً ، وأصبح المعنى الذي أراده « إن كنتم أيُّها الإخوة تريدون أن يخلو لكم وجه أبيكم ، وإن كنتم مصرّين على فعل شيء ما . للتخلّص من يوسف ، فألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السّيارة ، لا أن تقتلوه . وقياساً على ما سبق نقول : إنّ هذا الأخ يقول:« وألقوه » ولا يقول مثلا:« ولْنُلقِه » .

والذي يلوح لنا هو أنّ هذا الأخ مكتفٍ بمشاركته السّلبية ، قانع بحسده السّلبي ليوسف . وقد يقول قائل : وكيف نوفّق بين هذه السّلبية ورأيه الإيجابي الذي نفذه الإخوة فعلاً ؟

والجواب على هذا أن هذا الأخ لم يكن له ابتداءً أيُّ رأي ، فوجد نفسه مضطراً لأن يقدّم اقتراحاً ينقذ به حياة يوسف من ناحية ويحقق رغبة إخوته الأكيدة في التخلص من يوسف ، من ناحيةٍ أخرى . ثمّ إن قوله: (إن كنتم فاعلين) ينسحب أيضاً على الرّأي الثالث ، فكأنه والله أعلم يقول لهم : ألقوا يوسف في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، إن كنتم مصممين على فعل شيء ما للتخلص من يوسف . وإن لسان حاله يستمرّ قائلا : وإن لم تكونوا مصممين على فعل شيءٍ ما ، فاكتفوا مثلي بحسدي السّلبي له .

وهنا نقطةٌ مُهِمّة جداً نحبّ تأكيدها ، هي أنّ الأخ القائل ، يعتبر حجر الزاوية في قصة يوسف . فبسبب اقتراحه الذي ألهمه الله تعالى إياه ، سارت القصة هذه السيرة التي أرادها الله تعالى لها .

وإنا نستطيع أن نقول : إن هذا الأخ كان في قرارة نفسه قانعاً بحسده السلبي ليوسف ، وكان لا يمانع أن يحسد إخوتُه يوسفَ حسده . ونستطيع أن نفهم من مجموع الومضات النفسية التي ظهرت على طريقته في التعبير . أنّ هذا الموقف السلبيّ استمرّ ملازماً له ، حتى نفذ اقتراحه ، أخف الاقتراحات الثلاثة ضرراً وأكثرها احتمالاً للنّجاة .

وإن لنا لوقفة عند إجماع الإخوة ، وفيهم القائل ، على جعل يوسف في غيابة الجب ، قال تعالى:﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ . فكيف نوفق بين هذا الإجماع والقول بأن القائل أقربُ الإخوة مودّة ليوسف ؟ والجواب على ذلك أنّ الآية يجيء فيها قوله تعالى:« أن يجعلوه » وليس « أن يُلقوه » مثلا . فنحن بصدد تحوير لطيف من موقف الإخوة الذين

ارتضوا إلقاء يوسف في غيابة الجب ، ولعلّ لهذا القائل دوراً في هـذا التحوّل .

ولا نستطيع أن نبرىء الأخ القائل تماماً من أي مسؤولية . فنحن نتساءل مثلاً ، ألم يكن بإمكانه أن يخبر يعقوب برأيي الإخوة في سبيل التخلّص من يوسف ؟ ولكنا في الوقت نفسه نقول : هبه قد أخبر يعقوب بذلك ، فهل يستطيع يعقوب نفسه أن يمنع هؤلاء الإخوة من قتل يوسف أو طرحه أرضاً لو صمموا على ذلك . وما الذي يضمن أن يثني الإخوة عن تنفيذ رأييهم لو علم يعقوب . ومن يدري ؟ ربّما صاروا أكثر عناداً واستكباراً . بل ربّما لا يقف الأمر عند يوسف وإنما يتخطاه لسواه ، كالشقيق مثلاً .

ومهما يكن الحال ، فقد كان هذا الأخ راضياً بحسده السلبي ليوسف ، ساكتاً على عزم إخوته تنفيذ اقتراحه هو بإلقاء يوسف في غيابة الجب .

ويمكن القول : إنّ الإخوة بموافقتهم أخيراً على تنفيذ اقتراح الأخ الأكبر قد عادوا مرّة أخرى صفّاً واحداً تقريباً . وإن كان هناك من فرق طفيف فهو أنّ الأخ الأكبر يمثل الرفيق المراقب ، أو المشرف على التنفيذ ، أمّا المنفذون فهم الإخوة التسعة الباقون .

اغراء الاخوة يعقوب باخذ يوسف تنفيذاً للمؤامرة :

قال تعالى : ﴿ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب و أنتم عنه غافلون ، قالوا لئن أكله الذّئب ونحن عصبة إنّا إذنٌ لخاسرون ﴾ .

من البديهي أنّ ما جاء على لسان الإخوة في الآيات السابقات كان مُوَزّعاً عليهم ، فليس هناك ما يمنع أن قوله تعالى ﴿ يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ جاء على لسان بعض الإخوة ، ولعله جاء

على لسان مجموعتين كل مجموعة جاء على لسانها جزئية من الاثنتين . وأن قوله تعالى:﴿ أرسله معنا غداً يرتع و يلعب ، وإنا له لحافظون ﴾ يقال عنه ما قيل عن القول السّابق تماما و أنّ قوله تعالى:﴿ لئن أكله الذئب و نحن عصبة إنّا إذن لخاسرون ﴾ كان الردّ الطبيعي للكثرة الفائقة منهم على جواب يعقوب لهم ، كما أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون الأخ الأكبر مكتفياً بمجرد المراقبة من بعيد ، دون أن يكون له دور في الطلب الذي تقدّم به إخوته ليعقوب وردّهم عليه ، خاصة إذا عرفنا مستقبلاً أن هذا الكبير يجيء على لسانه ، في تأنيبه لهؤلاء الإخوة ، ضمير جماعة المخاطبين وليس المتكلمين ، أعني في قوله تعالى:﴿ قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ .

وأول ما يلاحظ على هذه الآية التي جاءت على لسان الإخوة ﴿ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ أنّ كلامهم الاستفهامي هذا يشوبه شيء كبير من التعجّب ، فهم يتساءلون لمَ لا يأمنهم يعقوب على يوسف مع أنهم ناصحون له أمناء عليه .

ونستطيع أن نفهم من قولهم:﴿ ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ الذي يعتبر أول كلام مباشر مع يعقوب عن يوسف بعد اتفاقهم على الرأي الثالث ، أن هذه هي نظرة يعقوب إليهم بشأن يوسف . وأن هذا الاستفهام التعجّبي منهم ليس سوى امتداد طبيعي لموقف يعقوب ، غير المؤتمن دائماً للإخوة على يوسف ، ذلك الموقف الذي كان لا يقع منهم موقع الرضا ، مع يقينهم بأنّ ذلك من حقّ يعقوب ؛ لأنهم خير من يعلم بحقيقة حسدهم وبغضهم ليوسف .

لقد كانوا من قبل ليسوا بحاجة لأن يصرّحوا ليعقوب بعدم رضاهم عن نظرته تلك لهم ، فقد كان موقفهم من يوسف ما زال سلبياً ، أما الآن وهم على وشك القيام بعملهم الإيجابي ضدّ الغلام يوسف ، فإنهم يتصنّعون

إظهار المودّة لأخيهم أمام والدهم . ثمّ هم يقومون لأول مرة بمخاطبة والدهم صراحة ، في صيغة الاستفهام التّعجّبي ، لامسين بمهارة لحقيقة عدم ائتمان والدهم لهم على يوسف وهي الحقيقة التي تعمّدها يعقوب ، ولم يجهلها الإخوة ، وأراد يعقوب لها أن تبقى غير مصرح بها . وكأني بيعقوب قد فوجيء بهذه الصراحة ، وبهذه الجرأة غير المتوقعة من الإخوة في إثارة مسألة عدم الائتمان لأول مرة دون سابق استئذان أو تمهيد .

ويلاحظ أن الإخوة لا يقولون:« ما لك لم تأمنا » كي يقال إن عدم الائتمان كان خاصّاً بالماضي . وإنما يقولون:« ما لك لا تأمنا » فدلّ هذا على أنّ عدم الائتمان شامل للماضي والحاضر ، وربما انسحب على المستقبل أيضاً . وهم حينما يتعجبون في هذه الصيغة فكأنهم يقولون : لم يكن هناك داع لعدم ائتمانك لنا في الماضي على يوسف ، ونحن الذين لم نعمل له أدنى سوء ، وها نحن أولاء الآن ، القمةُ في الإخلاص والنُّصح له . فلا داعي مطلقاً ، منذ اللّحظة ، وهذا من باب أولى لعدم الائتمان . ولا يخفى أن هذا التعبير بارع منهم ، وقد اتخذوه توطئة لطلبهم الصريح وضماناً لعدم رفض يعقوب الطلب .

وكأني بيعقوب أخذ يتساءل في نفسه عن السرّ الغامض الكامن وراء هذه المودة المفاجئة التي يظهرها الإخوة أمامه في تلك اللحظة . بل كيف يوفق بين علمه القطعي بحسدهم وخوفه من كيدهم المحتمل ليوسف الذي رأى الرُّؤيا ذات الشأن ، وبين طلبهم الصريح أخذ يوسف معهم في اليوم التالي ؟ فقد جاء في الآية على لسانهم ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ . فماذا يكون ردّ يعقوب عليهم ، وموقفه من طلبهم ؟ هل القبول أم الرفض ؟ إنهما أمران أحلاهما مُرّ .

لقد لمس الإخوة ببراعة مسألة عدم الائتمان ، وأظهروا أن ذلك لامبرر له وقد اتخذوا من كلّ ذلك توطئة لطلبهم الصريح بأخذ يوسف كي يرتع ويلعب فإنهم له لحافظون .

هل يستطيع يعقوب أن يرفض الطلب ؟ مع علمه بأن ذلك قد يكون له ردُّ فعل سيّء عند الإخوة ، ويكون سبباً في جعل كيدهم المخشيّ ليوسف حقيقة ؟ ومن يدري ؟ ربما يكون الإخوة قد تبين لهم خطأ نظرتهم السابقة لأخيهم فعدلوا عنها وعادوا إلى جادة الصواب ، خاصّةً وأنّ تعبيرهم في النصح ليوسف وحفظهم له قويُّ الدلالة ؛ فنحن بصدد إنّ التي تفيد التوكيد ، وقد جاءت مرتين ، ولام التوكيد التي جاءت مرتين كذلك ، أعني في قولهم « وإنا له لناصحون » و « وإنا له لحافظون » .

وهل معنى هذا أن يعقوب يستطيع أن يلبي طلبهم ؟ في الوقت الذي يجد نفسه أميل إلى عدم الائتمان ، لأنّ تحولهم إلى إظهار المودة ليوسف مفاجيء ، فهم لم يظهروا هذه المودة من قبل ، بل إنهم جعلوا ذلك توطئة لطلبهم الصريح بإرسال يوسف معهم في اليوم التالي . فما السبب وراء هذا التحول المفاجيء؟وهل هناك عَلاقة بينه وبين طلبهم ذلك ؟ وأخيراً هل هناك سِرّ يكمن وراء كل ذلك ؟ فما هذا السر ؟ أهناك شر أريد به يوسف ؟ وما نوع ذلك الشر ؟ بل ما هو السبب الذي يدفعهم إلى ذلك ؟ لا أتبين شيئاً جديداً قد طرأ ، فلم هذا الموقف الجديد من الإخوة ؟ أيكون يوسف قد قصّ عليهم رؤياه ؟ فهم يريدون أن يكيدوا له كيدا .

ولكن لم أعهد ابني الحبيب يرفض لي طلباً . لقد نهيته عن أن يقص رؤياه على إخوته ، وقطعاً هو قد فعل ، وامتثل أمري . إذن ليس هناك سبب جديد مثير للحسد ، فلعله بناءً على ذلك قد هدأ وخف ، ولعله مع مرور الأيام يذوب وينمحي . ولكن هل يمكن أن يحدث ذلك ورؤيا ابني الحبيب تدل على أنه سيكون له شأن دينيّ ودنيويٌّ مستقبلاً ؟ بل إنها تشير صراحة إلى أن هؤلاء الإخوة ، (كما تقول الآية) سيسجدون كعادة العصر ، في الدلالة على التحية والإجلال ليوسف . فمتى يكون ذلك ؟ هل في الوقت القريب أم البعيد ؟ وهل يكون ذلك عن صفاء منهم ليوسف أم عن حسد ؟ أم عن شيء قليل منه .

وكان على نبيّ الله الصادق القول أن ينقل إلى أبنائه بأمانة ما في قلبه . قال تعالى على لسانه:﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ . إن كلام الإخوة ليعقوب ينقسم إلى قسمين : التوطئة ثمّ الطلب الصريح بإرسال يوسف معهم .

وفي جواب يعقوب لا نتبين أي إشارة إلى التوطئة ، أعني ما جاء على لسانهم من قوله تعالى:﴿ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ . إن جواب يعقوب خاصّ بالطلب . فلماذا أهمل توطئة الإخوة ؟ وجعل كلامه لهم خاصًّا بالطّلب ؟ والجواب على ذلك أنه إنما أهمل التوطئة التي يمكن أن تنقسم بدورها إلى قسمين:﴿ ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ و ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ لأنه فيما يختص بالقسم الأول من التوطئة على علم يقينيّ بأنّ ما صرّح به الإخوة من عدم الائتمان حقيقة ، لعلمه اليقيني بحسدهم له . وكان يتمنّى في أعماق نفسه لو أن هذا الحسد قد زال كي يأمنهم بقلبه على يوسف ، وإن القسم الثاني من التوطئة ﴿وإنا له لناصحون﴾ الذي يعتبر انتقالاً مفاجئاً في إظهار النُّصح ليوسف ، ومرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالقسم الأول من التوطئة ، والذي يتمنّى لو أنه حقيقة ، كان يعقوب في قرارة نفسه ليس مطمئناً إليه ، وهو الكلام المعسول منهم . ولهذا هو لم يجب على القسم الأول من التوطئة ، لأنه حقيقة ، وسكوته يدلُّ على ذلك . ولو أجاب يعقوب عليه ، لم يكن ليتكلم بغير الصدق الذي قام به سكوته . ثم هو لم يجب عن القسم الثاني من التوطئة ، لأنه في حيرة بين تصديق ما يقول به قلبه من عدم نصحهم ليوسف وبين ما يقولون به من النُّصح له .

وبما أنه لم يكن عنده هذه المرة ، أيُّ دليل مادّيّ على عدم النّصح ، لذلك كان جوابه على طلبهم ليس قبولا واضحاً ولا رفضاً بيّنا . وإن كان هو ، والحق يقال ، إلى الرّفض أقرب ، قال تعالى عن يعقوب:﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ .

إنّ هذه الآية تنقسم إلى قسمين مصدرهما حبُّ يوسف والإشفاق عليه : القسم الأول:متعلق بذات يعقوب عليه السلام (إنيَّ ليحزنني أن تذهبوا به) والقسم الثاني:متعلق بغفلة هؤلاء الإخوة المحتملة وفتك الذئب بالصغير يوسف .

وبتأمُّلنا للقسم الأول من الجواب (إني ليحزنني أن تذهبوا به) فإنّا نتبينُ لسان الصدق الذي عُرف به أنبياء الله تعالى . إنّ يعقوب عليه السلام لا يجهل أن الحُبّ الذي وضعه الله تعالى في قلبه لابنه يوسف سببُ حسد هؤلاء الإخوة له،وفي هذه اللحظة الحرجة ينقل يعقوب ما في قلبه من حبّ يوسف بأمانة إلى الإخوة . ولماذا هو يحزن لذهابهم بيوسف ؟ لأنّ يوسف سيفارقه ، وهو لا يطيق له فراقاً . إنّ يعقوب نبي الله ، المتوكل على الله حق التوكل ، لم يكن ليخطر بباله البتة إلا أن يجعل ما في قلبه على لسانه . فليس هناك لفّ ولا دوران . وليس هناك إبهام ولا تضليل . ولكن هناك العبارة الواضحة المشرقة القويّة الصياغة . فنحن بصدد إنّ التي تفيد التوكيد ، ولام الابتداء التي تفيد التوكيد أيضاً .

ونستطيع أن نفهم من قول الإخوة السابق:(أرسله معنا غداً) ومن عودتهم عشاء بعد إلقاء يوسف في الجبّ ، أنهم أفهموا يعقوب بأن غيابهم عنه لن يطول . ومع ذلك فإنه يقول:إنه ليحزنه مجرد ذهابهم بيوسف وعدم وقوع عينه عليه . ولا يقول مثلا : إنّه ليوحشني أن تذهبوا به ، كما أنه لا يقول : إنّي ليحزنني أن تغيبوا به ، أو أن يطول غيابكم به ، كي يقال ربّما أطاق يعقوب ذهابهم به لفترة بسيطة أو ما شاكل ذلك .

ونستطيع أن نفهم أيضاً أنّ قول يعقوب هذا كان بمثابة الطعنة غير المقصودة الموجّهة إلى قلوب الإخوة المصمّمين على الغدر بيوسف .

وبتأمُّلنا للقسم الثاني من الجواب (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) فإنا نتبين أن هذا هو الكلام المنتظر من شفيق بسوء ظن مُولَع .

إنّ الإخوة حينما يذهبون فسيكون همّهم في نظر يعقوب الطيب القلب أن يستبقوا ويتناضلوا وربما ابتعدوا بأجمعهم عن المكان الذي نزلوا به وذهلوا عن يوسف الصغير السنّ الذي لن يستطيع مشاركتهم فيما هم فاعلون ، ولن يستطيع مجاراتهم لو حاول . ولو فرض أنهم ابتعدوا عنه فلن يستطيع اللّحاق بهم أو تتبّعهم . وبما أن تلك المنطقة مليئةٌ بالذئاب ، فليس من المستبعد أن يصادف واحد منها يوسف ، الذي لن يستطيع مطلقاً الدّفاع عن نفسه .

وبالتّالي فإنّ النّتيجة الحتمية لذلك هي أكل الذئب ليوسف . ووقتها سيكون حزن يعقوب على يوسف دائماً . وتأمل الفعل الذي يجيء على لسان يعقوب من قوله تعالى:«(وأخاف أن يأكله الذئب) إن الفعل « يأكل » هنا قمة في التعبير عما في نفس يعقوب عليه السلام ، وأبلغ فعل يحتلّ هذا المكان لأنه يدلّ من ناحية على فتك الذئب وشراسته ومن ناحية أخرى على ضعف يوسف وقلة حيلته .

وكأن يوسف ، لو صحت خلوة الذئب به ، أيّ ذئب ، فسيكون أكلةً شهية له ، لأنّه لن يجد مقاومة مطلقة .

إنّ الفعل « أكل » هنا يدل على الوَداعة في قمتها من جانب يوسف والفتك في قمته من جانب الذّئب .

ولو أنّ نية الإخوة حسنة . ولم يكونوا مصمّمين على الغدر بيوسف ، لكان في جواب يعقوب الأقرب إلى الرّفض ، صارف لهم عن طلبهم أخذ يوسف وحافزٌ لهم على العدول عن هذه الفكرة أساساً ، التي لم يرتح لها يعقوب أصلا . وبما أنهم مصمّمون على أمر ما ، يتعلق نجاحه على ذهاب يوسف معهم ، لذلك استمرّوا في الكلام ، مصرّين على الطلب .

وكما أغفل يعقوب في جوابه حديثهم عن ذات أنفسهم ، أعني أنه لم يجبهم على قولهم كما جاء في الآية (ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له

لناصحون) كذلك أغفل الإخوة في كلامهم الأخير حديث يعقوب عن ذات نفسه ، أعني أنهم لم يجيبوه على قوله كما جاء في الآية:(إني ليحزنني أن تذهبوا به) . إنما أجابوه على قوله الذي جاء بعد ذلك ، وكان كلامهم كما في الآية:(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون) .

ونحن نتساءل : لماذا أغفل الإخوة حديث يعقوب عن ذات نفسه ، وركّزوا كلّ جوابهم على الذئب وذات أنفسهم ؟ والجواب على ذلك أنّ الإخوة الذين زيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم كان كلام يعقوب (إنّي ليحزُنني أن تذهبوا به) بالنسبة لهم طعنة بلغت أعمق أعماقهم ، لأن هذا القول يبلور السبب الذي من أجله هم يحسدون يوسف كل ذلك الحسد . ألا وهو حبّ يعقوب غيرُ المتناهي له .

وهم قد أدركوا تمام الإدراك أن العبارة قد تخونهم لو حاولوا الرّدّ على يعقوب (إنّي ليحزنني أن تذهبوا به) ؛ لأنهم يُبغضون الحديث في هذه المسألة بالذات سبب بلائهم .

وقد عدلوا إلى الحديث عن الجزئية الأخرى من قول يعقوب ، وكأنّهم أدركوا أن نجاحهم في الرّدّ على الجزئية الثانية ، وإقناعهم يعقوب بأنه ليس هناك داع لخوفه من الذئب ، ردّ ضمني على الجزئية الخاصّة بحزن يعقوب . فلعلّ من الأسباب الكثيرة المعمّقة لحزنه الخوف من الذئب الذي عبّر عنه صراحة في الجزئية التالية .

وإن هذه الجزئية التي استهان بها الإخوة هي التي طبعت جزءاً كبيراً من قصة يوسف بطابعها .

وهل كان حزن يعقوب إلا نابضاً نامياً منذ زعم الإخوة بعد عودتهم عشاءً دون يوسف بأن الذئب قد أكله حتى جاء البشير وألقى قميص يوسف على وجه يعقوب فارتدّ بصيراً . إنّ هذه العبارة تعتبر تنبيهاً عميقاً بعيد المغزى من يعقوب لأبنائه . وكان الأَوْلى بهم أن يَقْدُروها حقّ قدرها ، ولكنّهم

لأمر يريده الله تعالى ، أهملوها إهمالا كلّيّاً أو شبه كلّيّ ، ونزلوا بكل ثقلهم على القول الآخر ليعقوب . قال تعالى عنهم: (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون) .

والمتأمل لهذا القول يدرك أن الإخوة بمهارة فائقة يغلقون كل المنافذ التي يمكن للذئب منها أن يفتك بيوسف . ويأتي بطبيعة الحال في المقدّمة ما أشار إليه يعقوب من غفلتهم عن يوسف المحتملة والتي قد تؤدي لفتك الذئب به . إنهم يُطمْئِنُون يعقوب بأنهم لن يكونوا مطلقاً غافلين عن أخيهم يوسف ، فلن يتركوه وحيداً مطلقاً .

ومن الجائز أن يشتركوا جميعاً في بعض أنواع اللّعب ، ولكنهم سيكونون بالضرورة بالقرب منه . ولو فُرض أنّ بعضهم ابتعد أو أوغل في الابتعاد ، فإنّ البعض الآخر يجب أن يكون مع يوسف ، أو على أقل تقدير قريباً منه قرباً بيّناً .

وفي كلّ هذه الأحوال لن يستطيع الذّئب الفتك بيوسف ، لأنّه لن يجده وحيداً ، وليس هناك الذئب الذي يستطيع مهاجمة عصبة من الرّجال ، أو بعض هذه العصبة .

ومعنى هذا أن الذّئب لا يستطيع مطلقاً الوصول إلى يوسف ، وبالتّالي لادّاعي أساساً لحزن يعقوب على ذهاب يوسف . وإنّ كلّ هذه الافتراضات شملها القول الذي جاء على لسانهم (لئن أكله الذئب ونحن عصبةٌ إنا إذاً لخاسرون) .

ونحن نلمح في قولهم هذا اعتداداً بالنّفس بعيد المدى ، فهم يأتون باللّام الموطئة للقسم ، وإن الشرطية والضمير المنفصل « نحن » الثّقيل الوزن . ولفظة عصبة التي تدلّ على العدد الكبير من الرجال . بينما يأتون في المقابل بالذئب في صيغة المفرد . وأتوا بعد ذلك بإنّ التي تدل على التوكيد واللام الداخلة على خبر إنّ . وقد أظهر الإخوة مهارةً فائقة في التعبير .

وهل يستطيع ذئب واحدٌ مفردٌ مهما كان شديداً بطشه أن يصل إلى صغير يحميه عصبة من الرّجال ؟ إن شيئاً كهذا في حكم المستحيل ، وعليه فإن الإخوة لو وافق فعلهم قولهم ، لما كانوا يوماً من الأيام من الخاسرين . ولكنه القول المعسول الذي أتقن الإخوة حبكه لغاية في أنفسهم .

وحينما واتتهم الفرصة نفّذوا ما بيتوه . وبعد ذلك فكروا في عذر يقدمونه . فلم يجدوا سوى ما سبق أن أخبرهم يعقوب صراحة بخوفه منه ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ ذلك الخوف الصادر من فؤاده عليه الصّلاة والسّلام .

قال تعالى:﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ ولم يكن الإخوة ليذهبـــوا إلا ويوسف معهم وفي صحبتهم ، وهنا يكون لجميع الإخوة العشرة ، إجماع في الرأي على جعله في غيابة الجب ، وفيهم الأخ الأكبر الذي لم يبد أيّة معارضة حينما أوشكت ساعة التنفيذ ! ولعلّ ذهاب يوسف معهم الذي تحقّق ببساطة لم يكونوا يتوقعونها ، وإمكان التخلص منه بسبب الذّهاب معهم طمعاً في أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعده قوماً صالحين ، وتصميم الإخوة التسعة أوّل الأمر على التنفيذ ، وبقاء الأخ الأكبر الدائم في هذا المحيط الممتلىء بالحسد ليوسف ، ذلك المحيط الذي يمثله تسعة من الأشخاص القادرين بإجماعهم على أمر ما ، ولو كان ضلالا ، التأثير في شخص واحد، ولو كان الأخ الأكبر لهم ، لعلّ كلّ هذه الأمور مجتمعة هي التي جعلت الأخ الأكبر ينجرف في التيار نفسه ، ولا تكون منه أدنى مخالفة .

وإن جملة « وأجمعوا » تظلّ تدل على أن الإجماع حتى هذه اللحظة ، كان في الرأي ، ويبقى بعد ذلك التنفيذ . وقد ذهب البعض إلى أن للأخ العاشر الأكبر دوراً فعالا في التّخفيف من سوء معاملة الإخوة ليوسف . وليس ذلك بمستبعد إن أظهر الإخوة حقيقة شعورهم ليوسف قبل جعله

في غيابة الجبّ ، أما إذا كتّم الإخوة رغبتهم حتّى أغروا يوسف بالنّزول إلى غيابة الجبّ كي يملأ لهم ماء ، وهو ما نرجّحه ، فلا مجال لإساءة المعاملة أو تدخّل الأخ الأكبر للتخفيف منها .

وقبل أن يقدم الإخوة على تنفيذ الخطّة ، هم فكروا مليّاً في العُذْر الذي سيقدّمونه بين يدي يعقوب ، والذي يرجى أن يكون مقبولا : وبما أنهم سيجعلون يوسف في غيابة الجب ، دون أن ينال شخصه أي أذى ، فمعنى هذا أنه لن يكون عندهم أي دليل ماديّ يمكن أن يقال عنه في صورة أكيدة قطعية إنه جزء من الغلام يوسف .

إنهم لم يقتلوه مثلا كي يأتوا بجثته زاعمين أنّ الذئب قد فتك به بعد أن يعبثوا بها ، وفكروا قبل التنفيذ مليّاً في العذر الذي يتمشّى مع صنيعهم بيوسف ، فلم يجدوا خيراً من العذر الذي سبق أن جاء على لسان يعقوب ، الخائف من أعماقه على ابنه ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ إن خوف يعقوب الفائق على ابنه اقتنص هذه الظاهرة فبلورها إشفاقه الأبويّ في القول الذي جاء على لسانه .

وحينما بحث الإخوة عن عُذر لم يكن عندهم القدرة لأن يبتدعوا سبباً آخر وجيهاً ، ولم يجدوا غايتهم أخيراً إلا فيما خاف منه يعقوب وهو الذئب فتمسكوا مرغمين بهذا العذر وقد أوصدت المنافذ أمامهم .

والحقيقة أن الإخوة قد بلوروا هذا العُذر في عبارة منمّقة تتضمن سبباً معقولا لتمكّن الذئب من الفتك بيوسف ، ألا وهو الاستباق الذي قاموا به ذلك النهار ، والذي يقومون به في كلّ مناسبة كهذه . خاصة وأنهم في ريعان الشباب .

وبما أنّ يوسف لا يستطيع مجاراتهم لهذا كان طبيعياً أن يبقى وحيداً عند متاعهم ومن ثم أكله الذئب .

والذي يدل على أن الإخوة كانوا يحسبون ليعقوب حساباً كبيراً هو أنهم

قبل التنفيذ فكّروا في العذر ، ومن ثَمّ فهم قبل جعل يوسف في غيابة الجب نزعوا عنه قميصه . وبعد إلقائه فيه قاموا بتلطيخه بدم كذب . وبما أنه ليس هناك نص قرآني يشير إلى أنّ الإخوة لم يتقنوا إظهار القميص في المظهر اللائق بهذه المناسبة ، فليس هناك ما يمنع قبول ما ذهب إليه الكثير من أنّ الإخوة ذُهِلوا عن تمزيق القميص ، وقد أخذ يعقوب ذلك حجّةً عليهم . ولكنا إذا نظرنا من زاوية حرص هؤلاء الإخوة على إقناع يعقوب بصدق كل ما جاءوا به ، ثم هم عشرة يكمل بعضهم ما غفل عنه البعض الآخر ، وليس هناك إشارة في القرآن إلى عدم تمزيق القميص ، لكل ذلك نحن لا نستبعد أن يكون الإخوة قد فطنوا إلى تمزيق القميص . ولكن الدلائل الأخرى هي التي جعلت يعقوب لا يصدّق لهم شيئاً . ومن أهم هذه الدلائل أنّ الذئب الذي خاف منه على يوسف هو الذي زعموا أنه أكله .

النبأ الجلل يصل إلى يعقوب عليه السّلام :

قال تعالى:﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ، قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب ، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

إن هؤلاء الإخوة حينما يعودون يتوجّهون مباشرة إلى أبيهم ، فعندهم الجرأة الكافية لأن يواجهوا أباهم بهذا النّبأ العظيم . ولكن في أي وقت يعودون وفي أي حال ؟ إنهم يعودون عشاءً وفي ظلمة الليل الحالكة . ونرجّح أنهم تعمدوا مواجهة أبيهم بذلك النبأ في ذلك الوقت بالذات ، لأن الظّلام مسعفٌ لهم على إخفاء حقيقة ملامح أوجههم ، وإتاحة الفرصة لأصواتهم العالية بالبكاء لأن تلعب دورها .

وإذا افترضنا أنه كان لزاماً عليهم أن يواجهوا أباهم بهذه الحقيقة

بأنفسهم فليس لهم الخيار في ذلك ، فإنهم لم يكونوا مرغمين على المواجهة في ذلك الوقت بالذات . ولكن علمهم اليقينيّ بالكذب الكبير الذي هم مقدمون عليه يجعلهم يختارون ذلك الوقت من الليل مسعفاً لهم على كذبهم . وهذا الاختيار دليل على أنهم كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم أقدموا على أمر جَلَل ، وأنهم يحملون النبأ الذي سيسوء يعقوب أيّما إساءة .

وحينما يجيء هؤلاء الإخوة عشاءً يبكون ، هل هم صادقون في ذلك ؟ هم بطبيعة الحال كاذبون ، وكانوا يريدون بهذا البكاء أن يهيّئوا والدهم لتلقّي النبأ الفاجع . وإنا لنتساءل أيُّ عشاءٍ هذا الذى جاء فيه الإخوة ؟ هل هو عشاء ذلك اليوم أم عشاء يوم آخر ؟ الراجح في اعتقادي . والله أعلم ، أنه عشاء ذلك اليوم ونستطيع أن نفهم أنّ هؤلاء الإخوة منذ أن أذن لهم يعقوب بأخذ يوسف في الغد ، أخذوا يتدبّرون الأمر ؛ ويتدارسون في أنفسهم الخطّة . كما نستطيع أن نفهم أنهم استيقظوا صباحاً في وقت أكثر تبكيراً ، وحجّتهم الظاهرة أنهم مقدمون على رحلة ينبغي أن يُستَعدَّ لها . وحجتهم الخفية أنه آن الأوان لأن يخلو لهم وجه أبيهم بعد التخلّص من يوسف ، فعليهم أن يتعجلوا الأمر وأن يستعدوا له .

ومن الأدلة على أن المراد عشاء ذلك اليوم ، أن الأخ الأكبر أتى بالجبّ معرّفاً في اقتراحه الثالث : ﴿ وألقوه في غيابة الجبّ ﴾ . وهذا التعريف دليل على معرفة الأكثرية له إن لم يكن الجميع ، وحينما نتصور بطء وسائط النقل آنذاك ، واعتياد الإخوة الذهاب للاستباق والرياضة إلى المكان القريب من ذلك الجبّ ، نستطيع أن نفهم أنّ ذلك المكان والجبّ غيرُ بعيدين عن مكان يعقوب بُعداً شاسعاً ، ويُفهم من هذا ضمناً أنّه يمكن قطع المسافة بين مكان يعقوب ومكان الجبّ ، ذهاباً وإياباً ، مع تنفيذ الخطة في ذلك اليوم نفسه ، خاصةً وقد ألمحنا من قبلُ إلى أنّ الراجح أن هؤلاء الإخوة استيقظوا صباح ذلك اليوم مبكّرين .

ومن الأدلّة على أن المراد عشاء ذلك اليوم أيضاً ، أن الإخوة حينما صرّح يعقوب بحزنه على ذهابهم بيوسف تجاهلوا ، متعمدين ، مجرّد الإشارة إلى هذه المسألة . وربما أفهموا يعقوب بهذا التجاهل الكلّي ، بأنه لا داعي لذلك الحزن ، لأنه يعرف تماماً أنّ المكان الذي سيذهبون إليه ليس بعيداً ، ويفهم ضمناً أنهم سيعودون عشاء ذلك اليوم . فلا داعي للحزن على يوسف الذي لن يطول غيابه بحال .

ومن الأدلّة على أن ذلك أيضاً أن الإخوة يقولون: ﴿ أرسله معنا غداً ﴾ وهم يريدون سحابة اليوم التالي فقط .

وإن كان هناك من شيء نودّ الوقوف عنده مما جاء على لسان الإخوة ﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ﴾ هو جملة « جاءوا » فنحن لا نتبين منها ، في هذه المناسبة ، أي رغبةٍ في أنفس الإخوة للعودة أو الرجوع أو الذهاب إلى أبيهم (١) .

إنا نتبين فقط المجيء الذي اضطر إليه الإخوة اضطراراً ؛ لأنه أمر لا مندوحة منه . وهل يستطيع الإخوة ألاّ يجيئوا ؟ ولو فُرض أنهم لم يجيئوا فعلام يدل ذلك؟ على أنّ لهم يداً في اختفاء يوسف ، وهذا ما حرَصوا على نفيه عن أنفسهم . ثمّ إنّ الهدف الذي سَعَوْا إليه ليس مجرّد التخلّص من يوسف ، ولكنه التخلّص بقصد أن يخلو لهم وجه أبيهم . إذن لقد كان لزاماً عليهم أن يجيئوا إلى أبيهم ، ولكنه مجيء المضطرّ . إن الآية تستعمل الفعل جاء ، ولا تستعمل مثلاً الفعل رجع أو ذهب ، وكلٌّ منهما يدلُّ على أن هناك رغبة من نوع ما في الرّجوع أو الذهاب ، ولا يفيد الفعل « جاء » هنا شيئاً من ذلك .

---

(١) تبين من الاستعمالات الكثيرة فى القرآن الكريم لجملتى (جاء) و (أتى) أن جاء تستعمل دليلا على القرب ، المكانى والزمانى والنفسى . وأن اتى تستعمل دليلا على البعد ، المكانى والزمانى والنفسى .

وهكذا جاء الإخوة أباهم في ظُلمة اللّيل ، لأن في عدم ظهور ملامحهم على حقيقتها في ذلك الظرف ، بسبب الظلام ، مساعدة لهم أيّ مساعدة . « ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار »(١) ونستنتج من تعمّد الإخوة المجيء في الظلام أن يعقوب عليه السلام صحيح الإبصار ، لأنه لو لم يكن كذلك لاستطاع الإخوة أن يجيئوا في كل وقت ولما كانت هناك حاجة لتعيين الوقت بأنه في العشاء .

وبقصد تهيئة يعقوب رفعوا أصواتهم بالبكاء ، ولا يخفى أن للصوت دوراً فعالاً في مثل ذلك الوقت ، ولم يجهل الإخوة ، أنّ حاسة السّمع عند يعقوب السليمة سلامة عينيه . مسعفة لهم . فرفعوا أصواتهم بالبكاء . ولعلهم إنما ابتدأوا به حينما أصبحوا قريبين من مكان والدهم . ومن يدري ؟ علها فكرة عرَضت لواحد منهم ، فاستحسنها الباقون ، وقاموا بتنفيذها جميعاً . خاصة وهم يعرفون أن صدمة كهذه ستكون عنيفة على يعقوب . وكان البكاء سبباً في نزولها تدريجياً قال تعالى:﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ .

لقد كان طبيعياً أن يسأل يعقوب عن سبب بكائهم ، ولعله فرّ بآماله إلى أنّ البكاء ليس على يوسف . وكان الامتحان الأكبر بعلمه بحقيقة النبأ .

وحينما نتأمل عرض الإخوة له فإنا نتبين نِيَّتَهُم الصادقة في عرضه في أقل الصُّور إلحاق أذى بيعقوب . إنّهم يقدمون بين يدي النبأ بالسبب الذي من أجله أكلَ الذئبُ يوسف بعد قولهم: « يا أبانا » المحاول تلطيف الجوّ المتليء بالمخاوف هذا السبب يبدو من قولهم:﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ وإذا

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٨٨ .

كان يعقوب منذ أن سمع بكاءهم أَوْجَسَ في نفسه خيفة أن يكون حلّ بيوسف خطب ، فإنا نستطيع أن نفهم أنه منذ أن سمع بالسَّبَب الذي جرى على لسانهم رَجَح عنده أن ذلك توطئة لخطب ألمّ بيوسف ، أليست هذه المقدمة أو التوطئة تدخل تماماً تحت قوله لهم سابقاً:(وأنتم عنه غافلون) إنّ كل أبنائه الذين ذهبوا بيوسف يستطيعون أن يستبقوا باستثناء يوسف ، صغير السن . فمعنى هذا أنهم تركوه عند متاعهم وابتعدوا عنه بالضرورة لأن الاستباق يعني ذلك ، وقد تحقق حَدْس يعقوب حينما جاء على لسانهم : « وتركنا يوسف عند متاعنا » . إذَنْ فسيزعمون أن الذئب قد أكل يوسف . وكأن الذي خوفتهم منه محقّاً دلالتهمْ على اتخاذه ستاراً لعمل شيء قاموا به تجاه أخيهم .

وقد تحقّق حَدْس يعقوب حينما جاء على لسانهم قوله تعالى:(فأكله الذئب) لقد بلغ الإخوة من الوقاحة وصفاقة الوجه للدرجة التي يستعيرون الفعل أكل الذي استمدّ عظيم دلالته على لسان يعقوب من بساطته المعبّرة عن وداعة يوسف وخبث الذئب . إنهم يستعملون هذا الفعل على الرّغم من حاجتهم إلى التّفْخِيم والتّهويل . لأن يعقوب ببساطة ، سبق أن استعمله . وحينما يستعملونه بالذات يعود يعقوب إلى الأحداث التي تخيّلها حينما جاء على لسانه (وأخاف أن يأكله الذئب) فتلوح له على أنها ممكنة الحدوث في الواقع .

ومع علمهم بأن عذرهم هو ما حذرهم والدهم منه ، وأنه يعتبر طعنة لهم في صميم رجولتهم وتبجّحهم السابق بأنهم عُصْبَة ، إلا أنهم رضوا به عُذراً لأنه ليس هناك عذر آخر مساوٍ له . بل ليس هناك عذر آخر قريب منه في الاستساغة واحتمال القبول . بل إنّ العذر الذي يُعتبر أبلغ الأعذار ، ليسوا متأكدين من قبول يعقوب له . لا إنّهم يرجّحون رفضه له ، ولهذا جاء على لسانهم قوله تعالى:(وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) والمعنى ،

والله أعلم ، إنك لست مطمئناً إلى تصديقنا لمحبتك الفائقة ليوسف ، ولو كنا صادقين فيما نقول ، فكيف وأنت لم تطمئنّ من قبل إلى نصحنا ليوسف ، لهذا كنت غير مؤتمن لنا عليه .

وهناك نوع من التشابه بين قول الإخوة الآن:﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ وقولهم من قبل:﴿ ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ ومصدر ذلك التشابه أن نفسية الإخوة في الموضعين متشابهة . إذ لم يكونوا صادقين في المناسبتين . إنهم حينما يقولون:﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ إنما يعبّرون بإخلاص عن حقيقة الموقف الذي يتوقعون يعقوب عليه السلام أن يتّخذه منهم ؛ بناءً على ما يعرفون من حقيقة عدم صدقهم ، على الرغم من محاولة إضفاء جوّ الصّدق على فعلهم وقولهم .

قال تعالى:﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ .

لقد وُصِفَ الدّم بأنه كذب على سبيل المبالغة ، لأنهم أرادوا إيهام يعقوب بأنه دم يوسف، و لم يكن الأمر كذلك . وكان جواب يعقوب موافقاً للموقف الذي توقعوا أن يقفه . فابتدأ كلامه بحرف العطف « بل » للإضراب عن كلامهم المذكور قبله وجعله في حكم المسكوت عنه،وهو يدلُّ هنا على أن ما جاء قبله كذبٌ صريحٌ في عرف يعقوب ، وأن الصحيح ما جاء بعده .

فما الأسباب التي جعلت يعقوب لا يصدّق الإخوة . بل يتّهمهم بأنهم المسؤولون عن عدم عودة يوسف معهم ؟ هذه الأسباب نجملها فيما يلي :

١ – التناقض الواضح بين عهدهم المعسول ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ و ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ وبين فعلهم بعكس ذلك .

٢ – جرأة الإخوة الغريبة المفاجئة في قولهم:﴿ ما لك لا تأمنا على يوسف ﴾ وهي جرأة منهم غير عادية ، لا شك أنها جعلت يعقوب وقد

جاءوا عِشاءً يبكون يفكر مليّاً في الدافع لهم على هذه الجرأة و العَلاقة بينها وبين النبأ الفاجع الذي جاءوا به .

٣ ــ طلب الإخوة غير العادي أخذ يوسف معهم مكاناً على بُعدٍ مّا . ونعتقد أن هذا الطلب بالذات الأوّل من نوعه .

٤ ــ إغفال الإخوة المتعمّد في جوابهم على يعقوب للحزن الذي أشار إليه بوضوح في ردّه على طلبهم ﴿ إنّي ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ وكأنّى به عليه السلام وقد حدث ما حدث يقول في قرارة نفسه : لقد تجاهل أبنائي حقيقة الحزن الذي أعنيه بقولي﴿ إنّي ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ وقد أعماهم الضلال البعيد الذي هم فيه ، ونيّتهم السيئة تجاه أخيهم وحسدهم النامي له عن مجرّد الإشارة إلى الحزن الذي سيحلّ بي لابتعاد يوسف عني بعض يوم . أما وقد ذهب عني الآن ، ولا عِلم لي متى نلتقي وأين ؟ فأهلاً وسهلاً بك يا حزني .

٥ ــ اقترن بطلب الإخوة غير العاديّ إلحاح غريب في الطلب ، غير عادي أيضاً . فإذا كان يعقوب بالإضافة إلى تعبيره عن حزنه ، قد عبّر عن خوفه في قوله تعالى على لسانه:﴿ وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون ﴾ فإن الإخوة يظهرون خوفه مظهر ما ينبغي ألاّ يوجد أساساً .

أمن المعقول أن يكون بإمكان أيّ ذئب أكلُ شخص مّا بين جماعة من الرّجال الأفذاذ ؟ قال تعالى:﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون ﴾ .

٦ ــ حينما جاء على لسان الإخوة ﴿ أرسله معنا غداً ﴾ فَهِمَ يعقوب ضمناً أنهم سيعودون عشاء ذلك اليوم . وحينما يجيء الإخوة في ذلك الوقت نفسه ليس بيوسف ، ولكن بالنبأ الفاجع ، فإن التوافق الزمنيّ هذا يجعل من كان في مثل وضع يعقوب يعتقد بأنه لا يمكن أن يحدث اعتباطاً ، وأنّ هناك أمراً قُضِيَ بِلَيْل .

٧ ــ لقد جاء الإخوة أباهم عشاءً يبكون ، وإن بكاء عصبة من الرّجال ، بصوت عالٍ ، على أمر مّا ، مهما كان جللا غير عادي . ولا شك أنّ هناك فرقاً بين البكاء النابع من القلب والبكاء المصطنع . وليست المستأجرةُ كالثّكلى .

٨ ــ هناك تناقض بيّن بين قول الإخوة ، في سبيل إغراء يعقوب ، بأن يوسف سيرتع ويلعب . وبين قولهم الآن:(وتركنا يوسف عند متاعنا) . إن يوسف قد ذهب ليرتع ويلعب لا أن يترك عند المتاع ويغفل عنه . وهو ما سبق أنْ حذّرهم منه يعقوب ، فكأنّ تحذيره إغراء .

٩ ــ هناك تناقض بين قول الإخوة من قبل:(وإنا له لحافظون) وقولهم الآن :(إنا ذهبنا نستبق) .

١٠ــ حينما نتأمل قول الإخوة في عرض الأسباب التي من أجلها تمكن الذئب من أكل يوسف فإنا نجدها إخراجاً جديداً ، وعرضاً بارعاً ذكيّاً لما جاء على لسان يعقوب من قبل:(وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون) خاصة حينما يستعير الإخوة بمهارة الفعل « أكل » ولفظ الذّئب اللذين سبق أن جاءا على لسان يعقوب والإخوة أيضاً .

١١ــ التناقض التامّ بين تبجّح الإخوة بأنهم عصبة ، ومن المستحيل تمكن ذئب ، في أي صورة من الصّور ، التعرّض ليوسف بأدنى سوء ، وبين ما جاءوا به فعلا .

١٢ــ بعد كلّ الملابسات السابقة ، حينما يجيء على لسان الإخوة هذه العبارة التعقيبية (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) فإنا نستطيع القول : إنه ينطبق عليهم تماماً القول:« كاد المريب أن يقول خذوني » .

١٣ــ ولعل هذا السبب من أقوى الأسباب في عدم تصديق يعقوب لادعاء الإخوة . وبقاء حزنه على يوسف نابضاً نامياً ، وأمله في لقائه مدة

بقائه حياً . هذا السبب هو الرؤيا الطيبة التي رآها الصغير يوسف ، والتي قصّها على والده الحبيب قصاً بريئاً .

وفهم يعقوب منها أن ابنه الحبيب يوسف ، سيكون له في المستقبل شأن دينيّ ودنيوي معاً . وبما أنّ ذلك لم يتحقق ، والدلائل تشير إلى أنه بإذن الله سيتحقّق ، في المستقبل الذي لا يمكن تحديد بُعْدِهِ ، لذلك كان من المستحيل أن يصدّق يعقوب أبناءه بأنّ ابنه الحبيب قد أكله الذئب وأنه فارق الحياة .

ألم يأت على لسان يعقوب مخاطباً يوسف ، محذراً له ومبشراً قوله تعالى: ﴿قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم﴾ ؟ وهكذا رفض يعقوب عليه السلام قبول كل ما جاء به الإخوة ؛ قال تعالى:﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ .

ومعنى ﴿سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ : أي زيّنت لكم أنفسكم غير الصافية الطيبة النقية أمراً ليس الزّينُ صِفَتَه ، ولكنّه القُبْحُ كُلّه .

وبهذه المناسبة نقول إن الفعل:« سوّل » جاء أربع مرات في القرآن الكريم ، في مناسبات متشابهة . بمعنى إظهار القبيح في المظهر الحسن . منها اثنتان على لسان يعقوب عليه السلام ، والثالثة على لسان السامريّ في قوله تعالى في سورة طه (١):﴿قال بصرتُ بما لم يَبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لي نفسي﴾ والرابعة في قوله تعالى

---

(١) اية ٩٦ .

في سورة محمد (١): ﴿ إن الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾ .

لقد نجم عن الأمر الذي سوّلت للإخوة أنفسهم ، ذلك الأمر الذي لم يعيّنه يعقوب بل جاء به في صيغة التنكير ، إذ لم يكن بإمكانه تعيينه ، عدم عودة ابنه الحبيب يوسف الذي كان ينتظر عودته على أحرّ من الجمر ، وإذا به يفاجأ بالنبأ الجلل .

وحينما نتأمل هذا القول من يعقوب الذي يخاطب أبناءه: ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً ﴾ فإنه على الرغم من صدوره من قلب أب محروق الفؤاد فإنا نجده أهون كلام ، وألين كلام ، وأعفّ كلام يمكن أن ينتظر من شخص في مثل وضع يعقوب . ولكن هل يمكننا أن ننسى أننا بصدد نبي من أنبياء الله رب العالمين ؟

إنّه قادر على التحكّم في نفسه كلّ القدرة ، ويبدو لنا في اللحظة التي تعتبر أحلك فترات حياته رابط الجأش ، حسن التصرّف ، طيّب الحديث ، يأبى الخلق العظيم الذي فطره الله تعالى عليه التّصريح بتكذيب الذين لا يشك في كذبهم .

ومَنْ هؤلاء ؟ إنهم أبناؤه الذين فرّطوا في فِلْذةِ كبده يوسف . إنه لا يصدق ما جاء به أبناؤه ، ولكنه يعبّر عن ذلك في الجزئية التي تخصهم في أوجز عبارة وأظهر عبارة .

وبذلك يظل عليه الصلاة والسلام مرفرفاً في عليائه . ويقول فقط لأبنائه : لقد زينت لكم أنفسكم بصدد أخيكم أمراً ليس الزين صفته . ولعل من أقوى ما جاء في خطابه لأبنائه دلالة ضمير المخاطبين الذي جاء مرتين في ﴿ لكم أنفسكم ﴾ .

---

(١) آية ٢٥ .

وإذا كان كلام يعقوب في هذه اللحظة الحرجة بهذه الدرجة من الطُّهر والإيجاز ، فالذي يُنتظر حينما يكون من الأبناء سكوت تامّ في المستقبل عن يوسف سكوت من يعقوب مثله . لا ليس ذلك فحسب . بل إنه سكوت الرّضا بما قضى الله تعالى وقدّر ، فليس منه انصراف عنهم ولا عبوس يبدو على وجهه حينما يراهم أو حينما يُقْبِلُون عليه .

وهذا ما عبر عنه صراحةً في حديث عن ذات نفسه (فصبرٌ جميل) والمعنى ، والله أعلم ، فصبرٌ جميلٌ هو الأَوْلَى بي ، فليس هناك شكوى إلى مخلوق ، ولا تضجّر ولا تبرّم . أليس الذي حلّ بيوسف من ابتعاد عنّي قدرٌ من الله تعالى عليه وعليّ ؟ .

إذن أهلاً وسهلاً بما قدّر الله تعالى . وإنّ الذي حل بيوسف لا يبدو لنا نحن البشر خيراً ، فهل هذا هو حقيقة باطنه ؟ لا يعلم ذلك إلا الله . إذَنْ علينا بالصبر . ولعل يعقوب كان يتصور ضعف ابنه الحبيب يوسف ، وقلة حيلته ، فتشتعل في فؤاده النيران ، ولا يلبث أن يفرّ إلى أرحم الراحمين ويطلب منه تعالى العون على ما حلّ به كي ينال الثواب الذي أعده لعباده الصابرين كاملا ، فيجيء على لسانه قوله تعالى:(والله المستعان على ماتصفون) والمعنى ، والله أعلم ، إني أطلب المعونة من الله تعالى في احتمال ما جئتم به إليّ مما لم ترتح نفسي له ، ولم تطمئن لقبوله .

وإن كان هناك من شيء ينبغي الإشارة إليه ، فهو أنّ يعقوب عليه السلام لم يكن فقط مستعداً لرفض الزعم بأن الذّئب قد أكل يوسف ، بل كان مستعداً بسبب الرّؤيا الطيّبة التي قصها يوسف عليه ، لرفض فكرة أن يوسف قد فارق هذه الحياة ، في أيّ صورة من الصُّور أساساً .

أما تحديد الأمر الذي سوّلت أنفس الإخوة لهم به ، فهذا الذي لم يكن بإمكان يعقوب . ونستطيع أن نتمثل بعضاً من الظنون التي مرّت به ، وبعضاً

من الآلام التي عَصَرَتْه . خاصةً حينما يتمثل صغر سن ابنه الحبيب ، وقلة حيلته .

ولكن إيمان النبوّة العميق كان لكلّ ذلك بالمرصاد . أليس ابنه الحبيب تحت رعاية أرحم الراحمين الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ إذن فالصّبر الجميل . وطلب العون من الله تعالى على ما نزل به . وتبقى بعد ذلك حقيقة ماثلة هي : ولكنّ الفِراقَ صَعِيبٌ،فكان الحزن الذي يندر وجود نظير له .

وبانتهاء القول الذي جاء على لسان يعقوب ، يُسدل الستار على الفصل الأول الطويل الذي ظهر فيه يعقوب وأبناؤه كي نعيش مع الصغير يوسف والأحداث التي حلّت أو ارتبطت به حتّى صار عزيزَ مصر وجاءه إخوته للمِيرَة .

تصوير تقريبي لذهاب الاخوة بيوسف حتى رحيل السيارة به :

وقبل أن ننتقل إلى مشهد آخر ، نتساءل : ألم يخطر ببال الإخوة ، وقد رأوا الحزن الذي حلّ بيعقوب أن يتداركوا ما فات ، أم أن ذلك لم يخطر ببالهم ؟ ولو أنهم حاولوا تدارك ما فات ، هل كان سيُقدَّر لهم النجاح في استعادة يوسف أم أن ذلك لن يقدَّر لهم ؟ للإجابة على ذلك نود أن نتصوّر ببساطة كيف تمت عملية الذهاب بيوسف ، ووضعه في غيابة الجبّ وتلطيخ قميصه ، وعودة الإخوة إلى أبيهم عشاءً ومجيء السّيارة ، وأخذ الوارد ليوسف ، ورحيل السيارة به، كما نودّ أن نعرف الوقت المعقول الذي تمت فيه كلُّ هذه الأحداث .

أشرنا من قبل إلى أنّ الإخوة قد فهموا أن والدهم لم يمانع صراحةً في أخذ يوسف في صباح اليوم التالي ، وأنه قد سمح له في ذلك .

وعليه نستطيع أن نفهم أنهم أخذوا يتدارسون في الخفاء عملية تنفيذ

جعل يوسف في غيابة الجب ، والعذر الذي سيقدمونه ليعقوب بعد أن يعودوا . ونستطيع أن نفهم أيضاً أنهم استيقظوا أو على أقل تقدير أكثرهم ، صباح اليوم التالي في وقت مبكّر جداً .

ولا نستبعد أن الصغير البريء يوسف قد استيقظ لفرحه بالنزهة المرتقبة في الصباح الباكر جداً على غير عادته .

ونستطيع أن نفهم أن المجموعة قد انطلقت صوب المكان المعلوم في أول وقت ممكن لا تلوِي على شيء ، وأن الإخوة الذين درسوا العملية من أولها حتّى آخرها قد فطنوا إلى الحاجة لحيوان يُذْبَح لتلطيخ قميص يوسف ، ومع أنهم عُصْبَة ، وربما استطاعوا وهم الذين اعتادوا الاستباق والرّياضة أن يصطادوا حيواناً مّا ، ولكن هذا الاصطياد قد لا يكون ممكناً ، والصيد ليس ميسوراً .

ومن غير المعقول أن يترك الإخوةُ المسألة للظُّروف ومن ثمّ نحن نستنتج أن الإخوة قد أخذوا الحيوان الذي سيذبحون معهم .

وهل هناك شيء من غرابةٍ في أخذ مجموعة من الرّجال تقصد النزهة لحيوان واحد طعاماً لهم؟ ونستطيع أن نفهم أن الإخوة منذ أن وصلوا إلى المكان القريب من الجبّ ، أظهروا الحاجة الملحة للماء ، فمن غير المعقول أن يُحْمل الماء ، إلى المكان الذي يقرُب منه جُبٌّ فيه ماء لكلّ من يعرف حقيقة ذلك الجب ، فكيف إذا كانت هناك مجموعةٌ تريد أن تجعل شخصاً واحداً صغيراً منها في غيابته ؟ ونستطيع أن نفهم أن الحديث عن الماء بدأ بإعلان ضرورة إنزال شخص منهم إلى الغيابة ، كي يقوم مثلا بدور المائح ، وهو الذي يستقي الماء إغترافاً بكفّه . وما أسهل اقتناع صغير طاهر القلب كيوسف ، من مجموعة له من الإخوة ؛ بأنه الأَوْلَى بالنزول !

وهذا يعني أن عليه أن ينزع قميصه كيلا يتّسخ ، وأن عليه أن ينزل بواسطة حبلٍ يمسكون به حتّى يصل إلى الغيابة .

وما دام قد وصل إلى الغيابة ، فليس مهمّاً بعد ذلك أن يسحب الحبل بحيلة أن على يوسف أن يتركه ، وإن كان في وسطه أن يحلّه ، كي تتمّ به عملية رفع الماء ، أو أن يُترك يوسف في غيابة الجبّ برُمّته .

المهمّ أن يصل يوسف سالماً . والأهمّ أن تنجح عملية التخلّص منه .

ونستطيع أن نفهم ، ما دام أنّ بالقرب من ذلك الجبّ طريقاً عامرةً بالسيارة ، أن بعض الإخوة قد أشرفوا على عملية التنفيذ ، والبعض الآخر راقب المنافذ خوف الافتضاح وعدم نجاح العمليّة لو فاجأتهم سيارة .

ومنذ اطمئنانهم إلى نجاح العملية قرّروا المغادرة حالاً ، والذهاب إلى مكان آخر كي يطعموا ويشربوا ويرتعوا ويلعبوا بينما كان يوسف آنذاك في غيابة الجبّ .

وفي المكان الذي تحولوا إليه ، قاموا بذبح الحيوان المعدّ لطعامهم . وهناك تمت عملية تلطيخ قميص يوسف . ومن يدري ربما كانوا يستعملون الماء الذي أخرجه لهم يوسف .

أمّا لماذا قرّر الإخوة البقاء في المكان الذي تحوّلوا إليه حتى وقتٍ معين ، ولماذا لم يعودوا إلى أبيهم فالجواب على ذلك ، والله أعلم . أنهم الذين يعرفون الوقت الذي يستغرقه ذهابهم إلى أبيهم ، كانوا حريصين على ألا يعودوا إليه إلا في وقت العشاء المُخْفي لملامحهم الحقيقية ، المسعف لهم على الادّعاء.ولا تستبعد أنهم كانوا لنجاح الخطة القمة في السعادة والانشراح. ومن يدري ؟ ربما بعد أن أكلوا وشربوا أخذوا في الاستباق والمناضلة واللّعب. حتى إذا حان الوقت الذي عيّنوه للعودة استعدوا للانطلاق ، وأخذوا يتناقشون في الكيفية الصحيحة لتنفيذ الشق الثاني من العملية ، ألا وهو إعلامُ يعقوب بأن الذئب أكل يوسف .

وننتقل الآن إلى تصور حال الغلام يوسف الذي جعله إخوته في غيابة

الجب . وأول ما نودّ الإشارة إليه أنّ أرحم الرّاحمين كان دائماً مع عبده المرشّح للنبوّة يوسف . قال تعالى:﴿ فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

ما معنى هذا ؟ معناه أنّ الغلام الصغير يوسف في تلك اللحظة الحرجة ، خاصة على غلام صغير مثله ، عنده بإلهام من الله تعالى اطمئنان بأنّ هذا قدرٌ من الله تعالى عليه ، وأنّ أحكم الحاكمين ، الذي اصطفاه بهذا لن يتخلّى عنه . فماذا حدث ؟ قال تعالى:﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ .

إنّ النقطة الوحيدة التي ستقف عندها هي جملة « وجاءت » من قوله تعالى:« وجاءت سيارة » سبق أن أشرنا إلى أن الفعل « جاء » من قوله تعالى عن الإخوة:« وجاءوا أباهم عشاءً يبكون » يدل على المجيء الطبيعي الضروري للإخوة .

والشيء نفسه يقال عن الفعل جاء من قوله تعالى:﴿ وجاءت سيارة ﴾ فإن مجيء هذه السيارة طبيعيّ وضروريّ . وإذا أمعنا فيه النظر ، أدركنا أنها العناية الإلهية هي التي جاءت بهم .

ففي الوقت الذي ذهب فيه الإخوة من هنا ، بعد جعل يوسف في غيابة الجبّ ، جاءت السيارة من هناك .

ألم نفهم قبل ، من لفظة « بعض » في قوله تعالى على لسان الأخ الأكبر: ﴿وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيارة﴾ أن تلك الطريق عامرة بالسيارة. ولو فرض أن واحدة منها لم تحتج الماء وأخطأت الغلام يوسف ، فإن الثانية أو الثالثة ، اللتين لن يطول تأخرهما لن تعدم الحاجة إلى الماء ، وبالتالي لن تخطيء الغلام يوسف .

وهذا ما نعتقد أنه حدث فعلا . وأن السيارة التي أرسلت بواردها كانت

أول سيارة تمرّ . ألا يكفي الوقت الذي قام فيه الإخوة بالذّهاب إلى الجبّ ، ووضع يوسف في غيابته ، وتركهم يوسف حتى مجيء السيارة أن يكون ذلك الوقت قد دنا من وقت القيلولة ، وأن على السيارة بالضّرورة أن تعرّج على المكان القريب من الجبّ للمقيل ؟ بطبيعة الحال كل ذلك يكفي لأن يكون الوقت على أقل تقدير قد دنا من القيلولة .

وعرّجت القافلة ، وكانت الحاجة بطبيعة الحال إلى الماء ملحّة ، وبمجرد أن وضعوا الرحال أرسلوا واردهم إلى الجبّ ووجد الغلام يوسف ، وعاد به إلى السّيارة .

ونستطيع أن نفهم أن السّيارة ، وهم جماعة التجار همُّها الكسب المادي . قد وجدت من الغلام الصغير يوسف ، الذي لا حول له ولا قوّة ، والذي يمكن أن يدُرَّ عليهم ربحاً ولو بسيطاً ، حافزاً لها على مغادرة المكان الذي نزلت فيه للقيلولة والتي وجدت في غيابة جبه الغلام يوسف ، في أوّل فرصة ممكنة ، خوفاً من أن يأتي قومه فيأخذوه منهم .

وهكذا تحرّكت السيارة المدفوعة على التحرك في غير الوقت المعتاد . ولعلّ ذلك تمّ في الوقت الذي ما زال فيه الإخوة يرتعون ويلعبون ويستبقون.

وبما أن السيارة تريد مصر ، فمعنى هذا أن يوسف كان في طريقه إلى مصر ، قبل أن يصل الإخوة إلى أبيهم . وقبل أن يوصّلوا إليه النبأ الفاجع الجلل . نبأ أكل الذئب ليوسف .

ما معنى هذا بالنسبة للإخوة ؟ معناه أنهم سواء حاولوا تدارك ما فات أم لم يحاولوا ، فإن إرادة الله قد نفذت . وسواء عادوا إلى الجبّ أم لم يعودوا ، فإن يوسف ليس في غيابته ، بل ليس في تلك الناحية على الإطلاق . ولا يمكن بحال معرفة الوجهة التي كان فيها ، ولو حَرَصُوا على ذلك .

فكيف بهؤلاء الإخوة وقد اغلقوا على أنفسهم بقولهم : إن الذّئب قد فتك بيوسف كل طريق للعودة . إنهم لم يقولوا مثلا إن يوسف قد سُرِقَ

منا او ندٌ علينا كي يكون عندهم منفذ للبحث عنه والضرب في الأرض ، كما حدث في المستقبل بعد أن أرغمهم إشراف والدهم على الهلاك . وابيضاض عينيه على عدم رفض طلبه لهم بأن يذهبوا فيتحسّسوا من يوسف وأخيه ، أو إعادة الادّعاء بأن الذئب قد أكل يوسف .

والآن نريد أن نتصور ببساطة حال هؤلاء الإخوة وقد شاهدوا أثر الصدمة العنيفة على والدهم وعلى آل يعقوب أيضاً .

نعتقد أن الإخوة قضوا تلك الليلة في دوّامة المأتم الذي كانوا سبباً فيه . وليس هناك ما يمنع أن يكون بعض هؤلاء الإخوة ، وبخاصة الذين كان رأيهم طرح يوسف أرضاً والأخ الأكبر ، قد أدركوا يقيناً الجريمة التي ارتكبوها بحقّ يوسف وأبيه وآل يعقوب . ولعل هؤلاء أو بعضهم صمموا على تدارك ما فات . وكيف يتمّ ذلك ؟ عن طريق العودة إلى الجبّ . فمن الجائز أن يكون يوسف ما زال باقياً فيه ، مع علمهم شبه الأكيد بأن هذا أملٌ جدُّ ضعيف .

ولكن هل المأتم الذي فيه آل يعقوب يهيّىء لهم العودة في تلك الفترة ؟ أم أن الدّوامة التي كانوا فيها أخذت من الليل شطراً كبيراً . وفهِمَ هؤلاء أن الفجر قريب ، ويمكن أن يتسللوا فيه صوب الجبّ الذي جعلوا يوسف فيه فلربما وجدوه .

ونميل إلى أن هؤلاء الإخوة الذين فكروا في هذا النوع من التفكير ،أو على الأقل بعضهم . قد قاموا في أول فرصة ممكنة بالانطلاق صوب الجبّ . وكانت أفئدتهم موزّعة بين الأمل واليأس ، والرّجاء والقنوط . وكانوا يفزعون بآمالهم إلى الكذب وحينما وصلوا إلى الجبّ ، وأمعنوا النظر في غيابته تبينت لهم الحقيقة المرة ، ولعل بعضهم أخذ يستعين بالبعض الآخر في إعادة النظر ، فلعل بصرهم زاغ أو طغى . ولكن من سمات الغيابة أن يكاد يختفي من فيها عن العيون . ولا نستبعد أن واحداً منهم ، وربما أكثر ؛ قد نزل

بنفسه إلى الجبّ كي يفحص بعينيّ رأسه غيابته . ولكن الحقيقة هي الحقيقة .

ولم يكن في تلك النواحي من أحد يمكن أن يُسأل تلميحاً عن مكان غلام صغير نسوه في غيابة الجب . إن كان من الجائز أن يتفوّه أُناسٌ عقلاء بكلام كهذا . لأنّ السّيارات إنما تعرّج على ذلك المكان لأنّ بالقرب منه جبّاً فيه ماء . وليس لأنه قرية مثلاً . أو محطة لقوافل يمكن أن يكون بهما بعض الأشخاص المستقرّين . الذين من الجائز أن يُسألوا في صورة من الصُّور .

وانتهى الإخوة إلى أن يوسف قد أخرجه من غيابة الجبّ شخص أو أشخاص . وأنهم اتجهوا به وجهة ما . لا يمكن تعيينها على وجه الدّقة . وهكذا عاد ذلك البعض من الإخوة بِخُفَّيْ حُنَيْن .

ولا تختلف هذه النتيجة لو فُرض أنهم عادوا إلى الجبّ أدراجهم بعد أن ذُهلوا لهول الصّدمة التي حلّت بوالدهم والتي لم يكونوا يتوقعون لها كلّ ذلك العنف . لأنّ الإخوة قبل عودتهم إلى أبيهم بالنبأ الفاجع ، كان الصّغير يوسف في طريقه إلى مصر كي يباع في سوقها بثمن بخس دراهم معدودة .

ورجع هذا البعض من الإخوة إلى مكان يعقوب دون أن يعلم أحدٌ بذهابهم إلى الجبّ وعودتهم منه . ولعلهم أخبروا البعض الآخر بهذه الحقيقة ، واستقرّ رأي الجميع على إبقاء الأمر سِرّاً والتمسك بالزعم السّابق أنّ الذئب أكل يوسف . ألم يجيئوا إلى والدهم بقميصه وعليه دمه ؟ بلى إذن فليتصرّفوا كما لو أن يوسف قد فارق الحياة فعلاً .

اخوة يوسف فى مصر للمرّة الاولى :

وبعد عودة الإخوة إلى أبيهم عشاءً يبكون ، وزعمهم أنّ الذئب فتك بيوسف ، ومجيء السيارة وذهابهم بيوسف وبيعهم له في مصر ، تتوالى

المشاهد التي يختفي فيها إخوة يوسف ووالده بالكليّة . ويطالعنا الإخوة لأوّل مرّة بعد ذلك حينما يجيئون إلى مصر للميرة ، ويدخلون على عزيزها الذي له حقّ التصرّف في الميرة وفي كلّ شؤون مصر بعد الملك .

وفي المشاهد القرآنية التالية ؛ تبدو في صورة حوارٍ خفايا أنفس آل يعقوب . وسنحاول بإذنه تعالى ، تبيُّن خفايا هذه الشخصيات ، على غرار ما سبق . قال تعالى:﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون ﴾ .

وأوّل ما نقف عنده الفعل « جاء » من قوله تعالى:« وجاء إخوة يوسف » الذي يقال عنه ما قيل في الموضعين السابقين . فهو يدلّ على المجيء الطبيعيّ الضروريّ .

ثم نتساءل : لماذا توجه الإخوة بالضرورة إلى مصر وليس إلى أيّ مكان آخر ؟ لأنّ المجاعة لم تكن وقفاً على مكانٍ دون مكان ، وإذا كانت مصر ، وهي من أخصب الأماكن ، قد مرّتْ بسبع السنين العجاف ؛ فقد مرّت فلسطين حيث يعقوب وآله بالمحنة نفسها . وإذا كان أخصب المناطق ، مصر والشام ، هدفاً للمجاعة ، فمن باب أولى باقي الأماكن الأخرى .

والحقيقة أنّ رؤيا الملك التي عبّرها يوسف . وإن كانت خاصّة بمصر ، إلا أنّ وضع الأماكن الأخرى ، مماثل لوضع مصر في سنى الشدة ، بل لعله أشدّ سوءاً .

وتفسير ذلك أن إرادة الله تعالى شاءت أن يرى ملك مصر رؤياه المعروفة التي عبرها له يوسف عليه السلام ، فعرفت المجاعة الرهيبة التي لاحت في الأفق البعيد جداً . ولم تشأ إرادته تعالى أن تُرَى رؤيا مماثلة في مكان خصب آخر كي يُحتاطَ للشدة قبل حلولها .

بل ليس المهمُّ هو الرُّؤيا ولا من يؤوّلها إن صحّ أن وُجد من يحسن ذلك . إنما المهمُّ حقاً هو الشخص الحفيظ العليم الذي يُجعل على خزائن الأرض . وكان هناك شخصٌ واحد فقط هو الذي يستطيع أن يقود المركب إلى برّ الأمان ، هذا الشخص هو يوسف عزيز مصر آنذاك .

لكلّ ذلك كان طبيعياً جداً ، حينما تحلّ المجاعة بكل مكان أن يكون عضُّها في غير مصر أكثر إيلاماً . وكان طبيعياً جداً أن يُهْرَعَ الناس من كل حَدَبٍ صَوْبَ مصر وعزيزها للميرة .

والحقّ أنه لم يكن بمصر اكتفاءٌ ذاتيٌّ من الطعام فقط ، بل كان عندها من الفائض ما تستطيع أن تمدّ الناس منه بما يُقيم أَوَدَهم لسبع سنواتٍ شداد . لا بل لأكثر من ذلك لو فرض أنّ الحاجة كانت لا تزال قائمة . فهذا هو الذي ينتظر من الحكيم يوسف ، الحفيظ العليم ، الذي يُشرف بنفسه على عملية التوزيع ، ولم يكن يُعطي الشخص الواحد الطالب للميرة أكثر من حِمْلِ بعير .

وبطبيعة الحال ؛ ليس إخوةُ يوسف أوّل من جاء مصر طلباً للميرة ولا آخر من جاء فقد سبقتهم أفواج وأفواج حتى انتشر الخبر وبلغهم أن بإمكانهم أن يحصلوا على الضروريّ من الطعام في أرض مصر .

وكان لتحديد يوسف كمية الطعام التي يبيعها ، بحيث لا تتخطى حمل بعير ، دوره في جعل كلّ إخوته لأبيه يغادرون أرضهم صوبه طلباً للطعام الذي يحتاجون إلى أكبر كمية منه .

وهكذا شاءت إرادة الله تعالى ، أن يكون إخوة يوسف لأبيه العشرة ، الذين جعلوه في غيابة الجب ، هم أنفسهم الذين يقصدونه الآن للميرة . كما شاءت إرادته ألا ينقص واحدٌ من أبناء يعقوب حتى يجيء هو وآله من البدو إلى مصر حيث يوسف عليه السلام .

وإنّ عدم مجيء شقيق يوسف إلى مصر مع إخوته لأبيه ، دليل على

تشبّث يعقوب به ومنزلته عنده ، وتعزّيه به عن يوسف . على الرّغم من أنّ الشقيق يُعدُّ الآن واحداً من الرّجال . ومع ذلك فإن يعقوب متعلق به ، ولا يطيق له فراقاً وذلك دليل على تعلّقه بيوسف وتذكره وعدم نسيانه البتة له .

وحينما جاء الإخوة إلى مصر . كان عليهم إن أرادوا الميرة ، أن يلتقوا بعزيزها وجهاً لوجه فهو الذي له حقُّ التصرُّف فيها . وهو الذي يُشرف بنفسه لأهمية المسألة على عملية التوزيع ، وهو الذي يحيط علماً بالاحتياطي وبالكمية المبيعة . وهو الحريص كل الحرص على التوفيق بين حاجة الناس الملحة النامية للطعام وبين السنوات السبع الطوال التي ستستمرّ فيها المجاعة .

وإن يوسف عليه السلام ، في هذا الظرف العصيب ، حينما يقوم بنفسه بالهيمنة على كل ملابسات المسألة ، ليضرب المثل الأعلى في الطريقة الصحيحة الجدية التي ينبغي أن تؤخذ بها الأمور . إنه عليه السلام لا يعتمد في هذه المسألة الحيوية البتة على سواه ، وحينما جاء إخوته دون سابق علم منه كان هو نفسه المتولي الأمر بنفسه ، ولو صادف أن جاء إخوته في أي وقت آخر فإنهم لن يجدوا متولياً لهذا الأمر سواه .

وما معنى أن يدخل على العزيز أبناء يعقوب ؟ معناه أنّ هذه الطريقة المتبّعة مع كلّ طالب طعام .

وما الفائدة من هذا الدخول ما دام بإمكان العزيز أن يضبط الأمور بطريقة أخرى ، دون الحاجة إلى مقابلة كل طالب . والجواب على ذلك : إنه التقدير السّليم الصحيح للمسؤولية . فحينما يشترط ألا يُعطى لشخص واحد زيادة عن حِمْل بعير ، ولا يتم هذا الإعطاء إلا بعد مقابلة مباشرة مع المعطي ذلك أدْعى إلى أن تُضْبَط الأمور وألا يأخذ شخص ما فوق حاجته على حساب الآخرين ، وقد يدفعه ذلك إلى العبث ، بسبب هذا الفائض ، بمصالح الآخرين . إن يوسف ، حرصاً منه على مصلحة الجميع ، يقوم خير قيام بما سبق أن اشترطه على نفسه فيما جاء على لسانه من قوله تعالى

مخاطباً ملك مصر: ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ .

وبناءً على ما سبق نستطيع أن نفهم أن دخول الإخوة على العزيز لم يكن أمراً خاصاً بهم ، بل كان عاماً لكلّ طالب طعام ، وذلك دليل على التواضع الجميل الذي فطره الله تعالى عليه . ونحن في غنىً عن أن نقول : إن الإشراف على عملية تصريف الطعام جزء بسيط جداً من أعمال يوسف ، عزيز مصر .

وقد أشارت الآية إلى أن الإخوة ، منذ أن دخلوا على يوسف عرفهم ، بينما لم يعرفوه البتة ، وذلك شيء طبيعي جداً ، لأن آخر عهد ليوسف بإخوته ، حينما كانوا في ريعان الشباب ، فليس هناك سوى التغير الطبيعي في أشكالهم بفعل السنين . ولو فرض أن يوسف أخطأ معرفة واحدٍ منهم أو أكثر فمن غير المعقول ألاّ ينتهي إلى معرفتهم وهم عشرة .

أما لماذا لم يتبينه الإخوة ؟ فلأنه حينما ألقي في غيابة الجبّ كان صغير السنّ حقاً . وقد حدث بالنسبة له تغيّر ملموس في الحجم ، بالإضافة إلى التغير الطبيعي في الشّكل . ثم إنه حينما دخل عليه إخوته كان بالضرورة ممثلاً للمنصب الرفيع الذي يتقلده خير تمثيل . وفي مثل هذه الحال تباعد هيبة الحاكم المرء عن حقيقته الفطرية . وفوق كلّ ذلك لم يكن ليخطر ببال واحد من الإخوة أن أخاهم الذي ألقوا به في غيابة الجب ، والذي يجهلون هل هو حي يرزق أم أنه قد فارق الحياة ؟ يمكن أن يكون ذلك العزيز الذي يبصرون .

ومع أن هؤلاء الإخوة ، هم أنفسهم الذين ألقوا بيوسف في غيابة الجبّ إلا أن الخُلُقَ العظيم الذي فطره الله عليه أبى إلا أن يُحسن إلى الذي أساء إليه ، فما نوع ذلك الإحسان بنصّ القرآن ؟ لقد أكرمهم كلّ الإكرام ، وأنزلهم أحسن مُنزل ، فقد جاءت على لسانه بهذا الصدد ، هذه الجزئية من القرآن ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ وإذا كان يفهم منها أن إكرام يوسف ليس وقفاً على إخوته النازلين به ، بل كان شاملا لكل قاصد له ، إلا أن المرجّح

أن نصيب الإخوة أكثر من نصيب سواهم . لأنهم إخوته ، وقد نال منهم تعب السفر، كما كان حريصاً ، تمهيداً لمجيء أهله من البدو إلى الحضر ، على طلب شقيقه ثم استبقائه عنده كما هو معروف .

ولم يكن إكرام يوسف لهم عن طريق أمر فتيانه بذلك فحسب بل تخطى ذلك إلى الحديث والمؤانسة وإلاّ كيف يستطيع يوسف الحريص على عدم معرفة إخوته له هذه المرة ، أن يطلب منهم بصريح العبارة كما جاء على لسانه في القرآن الكريم (قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم) ؟ إنما استطاع أن يطلب منهم ذلك بعد أن أخذ منهم هذه المعلومات ، التي كانوا يعتقدون أنها جديدة عليه .

ونستطيع أن نفهم أن يوسف ، القمة في البر بأبيه وأهله ، كان حريصاً على معرفة كلّ ما يمكن معرفته عنهم من هؤلاء الإخوة . وكان يستطيع أن يصل إلى هدفه مع الحفاظ على عدم الكشف عن شخصيته .

ونستطيع أن نفهم أن الحديث بين يوسف وإخوته . وإن كان الضروريّ إلا أنه بالتأكيد لم يكن بالقصير المخلّ . واستطاع أن يأخذ من المعلومات ما شاء ، دون أن يأخذوا منه شيئاً .

ولا شكّ أن الحديث تطرّق لشقيقه بنيامين ، وهذا هو الذي يفسّر طلبه منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، إذ لم يكن من المعقول أن يطلب يوسف ذلك ، لأن معناه الكشف عن شخصيته ، وهذا شيء لم يُؤذَن له فيه بعد .

ولم يقتصر إكرام يوسف لإخوته على إنزالهم منزلا كريماً ومؤانستهم بالحديث ، بل تخطّى ذلك ، وهم الذين أساءوا له من قبل ، إلى تلبية طلبهم من الطعام . بل إنه أوفى لهم الكيل ، في ظلّ تلك الظروف القاسية . وهذا شيء طبيعيٌّ منتظر من نبي الله يوسف ولم يكن يوفي الكيل لإخوته فقط ، بل كانت بطبيعة الحال ، تلك طريقته دائماً مع كلّ طالب .

وحصل الإخوة على كمية الطعام المسموح بها ، وهي ولا شك كمية ضخمة فهم عشرة أشخاص ، ونصيبهم حمل عشرة أبْعِرَة من الطعام . ولكن هؤلاء العشرة ، وراءهم الكثير من الأفواه التي هي في حاجة ماسّة إلى الطعام . ومعنى هذا أنهم يتمنون لو أن هذه الكمية كانت أكبر ، ولو بقليل . إنّها لو كانت مثلا أحد عشر جملاً لكانت فرحتهم أكبر . ومنْ يدري ؟ ربما تمنّوْا في تلك اللحظة لو أن شقيق يوسف معهم في تلك الرحلة ، وحصل على حمل بعير بِاسْمِه ، لأن عزيز مصر يشترط الحضور الشخصي كي يُعطي الطالب ذلك الحمل .

وما السبب الذي حال بين الأخ ومجيئه معهم ؟ حبٌّ يعقوب له وعدم قدرته على مفارقته

ولماذا كلُّ هذا ؟ لأنه يتعزى به عن ابنه الحبيب يوسف ، الذي زعم إخوته لأبيه ، أن الذئب قد أكله ، بينما وضعوه في غيابة الجبّ .

وهنا يقول الإخوة في أنفسهم : ما زال شبح الجريمة التي ارتكبناها بحقّ أخينا يوسف ، يطاردنا على الرغم من السنين الطوال التي فصلت بين يومنا هذا واليوم الذي جعلناه فيه في غيابة الجبّ .

وفجأة يقطع على الإخوة التّمادي في هذه التخيلات ما جاء على لسان يوسف من قوله تعالى:﴿ قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أني أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين ، فإنْ لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ .

وتأمّل صيغة تنكير لفظة « أخ » التي تعمّدها الألمعيّ يوسف ، إنه لم يأت بها معرّفة ، فلم يأت على لسانه مثلا : « قال ائتوني بأخيكم من أبيكم » فإن التنكير في هذه الحال أبلغ ؛ لأنه يدلّ على أنه ليس هناك شيء من علم عند العزيز بأخيهم من أبيهم . وهذا مُسْعِف للهدف الذي يرمي إليه يوسف من عدم الكشف عن شخصيته لإخوته ، بينما التعريف بطبيعته يوهم بشيء من العهد بين المتكلم والمخاطب « ألا ترى فرقاً بين مررت بغلامك ومررت

بغلام لك ؟ إنك في التعريف تكون عارفاً بالغلام ، وفي التنكير أنت جاهلٌ به . فالتعريف يفيد نوع عهد في الغلام بينك وبين المخاطب ، والتنكير لا عهد فيه البتة » (١) .

وإذا نظرنا من زاوية اخرى إلى هذه العبارة ﴿ قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ فإنّا نتبين أنها شاغلة لأذهان الإخوة ، مُبعدة بينهم وبين احتمال اكتشافهم لحقيقة شخصية العزيز .

فإذا كانت هذه العبارة من زاوية يوسف يراد بها المعنى الذي يفيده تعريف الأخ لأن له شقيقاً واحداً هو بنيامين . فلا فرق من زاويته هو أن يقول ما جاء على لسانه أو يقول : ائتوني بأخيكم من أبيكم . إلا أن عبارة التنكير هذه تختلف نظرة الإخوة لها . فهم حينما ينظرون إليها من زاويتهم هم ، وهم الذين تركوا عند أبيهم أخاً واحداً لهم منه ، فلا تختلف عبارة التنكير على لسان العزيز عن عبارة التعريف ، لأن المعنى في الحالتين واحد . ولأن هناك أخاً واحداً . ولكن الإخوة ينظرون إلى هذه العبارة ، ليس من زاويتهم ، وإنما من زاوية العزيز الذي يخاطبهم والذي يشترط عليهم شرطه .

إنه يجيء على لسانه ﴿ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ وهذا القول مؤلم للإخوة ؛ لأنهم وهم الذين اخبروا العزيز بأنهم تركوا عند أبيهم أخاً واحداً لهم من أبيهم ، لا يوحي هذا القول بأنه مقتنع بصدق ما قالوا ؛ لأن الأخ الحيَّ الذي يمكن أن يأتوا إليه به واحد ليس غير . فكان على العزيز ، لو أنه صدّقهم ، أن يجيء على لسانه : ائتوني بأخيكم من أبيكم ، خاصة وأنهما اثنان فقط ، أكل أحدهما الذئب .

ثم إن هذا القول على لسان العزيز الذي لا يُفهَم منه الإفراد ، نقل

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٣٦ .

الإخوة سريعاً إلى تصوُّر العمل الإجرامي الذي قاموا به تجاه أخيهم يوسف، وفي ذلك إيلامٌ لهم أيّ إيلام .

وحينما نتأمّل هذا القول نتبين أن يوسف عليه السلام ، كان يتعمّد تنبيه الإخوة من طَرْف خفيّ إلى العمل السّيّيء الذي قاموا به تجاهه عن طريق جعل عبارته مفتوحة ، تعني كلّ أخ لهم من أبيهم . وقد نجح عليه السلام في ذلك دون أن يفطنوا إلى أن الذي يخاطبهم أخوهم يوسف ، لأن هذه العبارة المفتوحة إنما يَفهم معناها القريب والبعيد من كان على علم بفعل الإخوة بيوسف ، وكانوا واثقين أن العزيز لا يريد إلا المعنى القريب . ولكنهم وهم المسيئون إلى يوسف ، كانوا بالضرورة يفهمون المعنيين معاً .

وبهذه المناسبة نقول : إنّ تنكير الأخ في هذه العبارة لا يمكن أن يصدر إلا من أخيهم يوسف ، ولم يكن ليخطر ببالهم أن العزيز هو أخوهم يوسف ، لأن كلّ الملابسات الأخرى لم تكن مهيئة لذلك الفهم .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان يوسف بعد طلبه الصّريح منهم بإتيانه بأخ لهم من أبيهم ، أعني قوله تعالى:﴿ ألا ترون أني أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ فإنا نجده منقسماً إلى قسمين : إغراء وتحذير . أو ترغيب وترهيب .

أما الإغراء والترغيب : ففيما جاء على لسانه ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وانا خير المنزلين ﴾ .

وأما التحذير و الترهيب ففي الآية التالية:﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ .

وبتأمّلنا لجزئية الإغراء والترغيب ، فإنا نجد يوسف عليه السلام القمّة في رهافة الإحساس وكرم الخلق .

إنه لا يشير مثلا إلى تسهيله حصولهم على الطعام النّادر الوجود عند

سواه ، ولا يشير من قريب أو بعيد ، إلى كميّة الطعام الكبيرة التي سمح لهم بها . ولا إلى أنه لم يمانع في إعطاء كلّ واحدٍ من الإخوة ، وهم عشرة ، حِملَ بعير . وكان بإمكانه ، ما داصُوا من عائلةٍ واحدة أن يجعلهم شركة في كمية أقلّ من التي حصلوا عليها فعلا .

كلّ هذه الجوانب وأشباهها لم تكن لتمرّ ببال يوسف الكريم الخلق ، فلم يكن يريد تأنيباً ولا مَنّا ، إنما كان يريد فقط جلب كلّ أهله إليه في مصر ، بعد معاقبته . بإذن من الله تعالى ، إخوته نفسياً . ووسيلته الأولى إلى ذلك استقدام شقيقه .

وهنا يلجأ يوسف إلى الإغراء والترغيب كما قلنا ، ويمسّ المسألة مسّا رفيقاً جميلا . إنه يذكّرهم فقط بأنه في تلك اللحظات الحرجة يوفي الكيل ، في الوقت الذي ربما لجأ فيه سواه إلى التطفيف . بل ربما لجأ إلى إخفاء ماعنده من طعام بالكُلّيّة ، ولو أدّى ذلك إلى تضاعف الشدّة على الكثيرين ، بل ربما لجأ إلى رفع الأسعار إلى مستوى غير معقول إن جادت نفسه بالبيع .

وحينما نتصوّر المشقة التي عاناها الإخوة في سبيل الحصول على كمية الطعام الكبيرة هذه التي لم يكونوا يتوقعون الحصول عليها بكلّ هذه البساطة نستطيع أن ننتهي إلى أن هذه الجزئية على لسان العزيز ﴿ ألا ترون أني أُوفي الكيل ﴾ قد فعلت في أنفسهم فعل السحر ، ووقعت منهم موقع الرّضا التامّ .

وإن الشيء الذي نودُّ التنويه به أن أسعار يوسف كانت في متناول الجميع ، بدليل أن كلّ واحد منهم حصل من الميرة على حمل بعير . ولكن في رحلتهم الثالثة إلى مصر لم يكن قد بقي عندهم سوى الدراهم غير الجيدة . ولو فرض أن أسعار يوسف كانت عالية ، فلربما لم تكف دراهمهم الجيّدة ، لغير الرحلة الأولى ، بل لعلّها لا تكفي لها فضلا عن سواها . إنّ هَمّ آل يعقوب منصرف إلى الآخرة وليس إلى الدنيا .

وإذا كانت الجزئية الأولى من الإغراء والترغيب على لسان يوسف (ألا ترون أني أوفي الكيل) مرتبطة بالطعام المبيع للإخوة ، فإن الجزئية الثانية على لسان يوسف (وانا خير المنزلين) مرتبطة بإكرام يوسف ، من ذات نفسه للإخوة ، وإنزالهم منزلا طيباً .

وتأمّلْ نبل نبيّ الله يوسف إذ بدأ في الإغراء والترغيب بالجزئيّة التي تتحدث عن الحق الخالص لهم ، وهو الطعام الذي اشتروه بُحرّ مالهم بقصد أن يُبْقِيَ عليهم ماء أوجههم ويحفظ لهم كرامتهم تامّةً غير منقوصة ، في الوقت الذي كان بإمكانه فيه ، وهم الذين أساءوا له من قبل ، أن يضع لهم العراقيل . أو أن يكون كلامه لهم في صورة غير هذه .

ولكنه النُّبل الذي فطره الله تعالى عليه يجعله يفعل ما فعل ، ويقول ما قال ، ويبدأ إغراءه وترغيبه فضلا منه بالإشارة إلى ما هو حق خالص لهم (ألا ترون أنّي أوفي الكيل) بينما يجعل إكرامه لهم ثانياً (وأنا خير المنزلين).

وحينما نتأمل هذه الجزئية الثانية فإنا نجد يوسف لا يقول إلا ما يقوله أكثر المتواضعين لله شكراً .

إنه يجعل نفسه واحداً من المكرمين للأضياف وهم كثير . وفرق ما بينه وبينهم أن الله تعالى وفّقه كي يكون خَيْرَهُم .

ولا شكّ أن هذه الجزئية فعلت مثل سابقتها في أنفس الإخوة فعل السحر وكانت برداً على أفئدتهم وسلاماً . ألم يعان الإخوة من بُعد الشّقّة الشيء الكثير ؟ ألم يجدوا في مصر من إكرام العزيز ما لم يكن يخطر لهم ببال ؟ ألم يصادفوا وهم بين ظهرانَيْ أهلهم بسبب المجاعة شيئاً كبيراً من العَنَت بينما وجدوا في مصر وهم عشرة ، لين العيش ورغده ؟ ألم يصادفوا في مصر أناساً ، قلوبهم منفتحة، وأنفسهم راضية ، وأوجههم باشة .

إن ما جاء على لسان يوسف من إغراء وترغيب ليس مصدرُه المنّ ، ولكنه التنبيه اللطيف إلى الفَعالِ الحَسَن ، بقصد أن يعودوا ثانية كي ينالوا

من الإكرام ما نالوا وتتحقّق في النهاية إرادة الله تعالى بلمّ شمل آل يعقوب وتعبّر الرؤيا . قال أبو حيان(١)« وظاهر كلّ ما فعله يوسف عليه السلام معهم أنه بوحي ، وإلا فإنه كان مقتضى البرّ أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه . لكن الله تعالى أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ولتفسّر الرؤيا الأولى » .

وإذا كان الإغراء والترغيب يميلان بطبعهما إلى اللين ، فإن التحذير والترهيب ، في قوله تعالى على لسان يوسف:﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ يميلان إلى شيء كبير من الجد .

وحينما نتأمل هذه الآية فإنا نجد جواب الشرط فيها منقسماً إلى قسمين موافقين في الترتيب لعبارة الإغراء والترغيب ومترتّبين عليها .

فإذا كانت جزئية الإغراء والترغيب الأولى ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل﴾ مرتبطة كما هو واضح بعملية الكيل ، فإن القسم الأول من التحذير والترهيب مرتبط كذلك بعملية الكيل « فلا كيل لكم عندي » .

وإذا كانت جزئية الإغراء والترغيب الثانية ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ مرتبطة بنزول الإخوة على العزيز ، فإن القسم الثاني من التحذير والترهيب مرتبط بذلك النزول ﴿ ولا تقربون ﴾ .

القسم الأوّل : إن لم يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، يحرمهم من الكيل الذي سمح لهم به في المرّة الأولى ، وإنه بطبيعة الحال صعب على الإخوة ، إذ من أين يأتون بالطعام إذ مُنِعوه من مصدره ؟

والقسم الثاني:﴿ ولا تقربون ﴾ يمنع هؤلاء الإخوة من المحاولة العقيم للحصول على الطعام ، إن لم يأتوه بأخيهم من أبيهم بل يحرمهم من مجرّد الاقتراب من مصر . وفي حرمانهم من الاقتراب ، حرمان لهم من كل المزايا التي حصلوا عليها في المرة الأولى . وفي مقدّمتها ما أشارت إليه الجزئية

(١) البحر المحيط ٥/٣٢٢ .

الثانية من الإغراء والترغيب ﴿وأنا خير المنزلين﴾ .

كان يوسف على علم تامّ بأن يعقوب هذه المرّة ، لن يسمح للإخوة ، بأخذ الشقيق إلى مصر ببساطة لما سبق أن فعلوه مع يوسف . لهذا كان حريصاً على أن يكسب أفئدة إخوته بحُسن معاملته ، كي ينقلوا هذه الصّورة إلى والدهم فيسّهل لهم عملية أخذ أخيهم معهم .

كما كان بحاجة إلى إظهار الكمية الضرورية من الحَزْم ، فانتهى الإخوة إلى اقتناع تام بأنهم إن أرادوا طعاماً فإنّ عليهم إثبات صدق ما قالوا للعزيز(١) .

والوسيلة الوحيدة لذلك الإتيان بأخيهم من أبيهم معهم . لهذا جاء على لسانهم ردّاً على العزيز ﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ .

وحينما نتأمل الآية على لسان الإخوة ، نتبين أنّ يوسف عليه السلام ، فهم منها شيئاً جديداً عن والده ومحبته لشقيقه ، وتعزّيه به عنه . فهذه الجزئية ﴿سنراود عنه أباه﴾ بمعنى أنهم سيستميلون أباهم ، الضنين بأصغر أبنائه ، أن ينزل على رغبتهم فيسمح لهم بأخذه معهم إلى مصر ، بناءً على اشتراط عزيزها .

كما فهم يوسف من الجزئية ، منزلته العالية عند والده التي لم يُبلِها بياض الأيام وسواد الليالي .

ثم هي تدلُّ على أنّ هؤلاء الإخوة ، ليسوا واثقين من تلبية أبيهم طلبهم . لهذا عبروا عن المعنى نفسه مرّة ثانية في صورة قوية من التعبير ، في هذه الجزئية ﴿وإنا لفاعلون﴾ التي اشتملت على إنّ التي تفيد التوكيد ولام التوكيد الداخلة على الخبر .

وهذه الآية بصفة عامة تدلُّ على اقتناع الإخوة بوَجاهَة طلب العزيز ،

---

(١) من أنهم ليسوا جواسيس ضد بلاده . في ظلال القرآن .

وتصور رد الفعل الحسن لكل ما تفضل به العزيز عليهم . وأي غرابة في أن يأتي معهم أخوهم من أبيهم . فيكرم إكرامهم ، وينال حمل بعير كأي واحد منهم ، ويعود معهم إلى أبيهم صالحاً سالماً ؟

وإن كان هناك من شيء نودّ الوقوف عنده فهو ضمير المفرد الغائب الذي جاء على لسان الإخوة في هذه الآية في قولهم « أباه » إنهم لم يقولوا ، وقد كان بالإمكان « سنراود عنه أبانا » .

وهذا دليلٌ على أن الإخوة ما زالوا يشعرون بأنّ هناك حاجزاً يفصل بينهم وبين أخيهم لأبيهم شقيق يوسف ، وأنّ قلوبهم ما زالت تجد على هذا الأخ ، خاصّةً وقد وجد المحرك لهذه المَوْجِدَة ، أليس حصولهم على الطعام مستقبلا مرتبطاً بمجيء الشقيق معهم ؟ ولو فرض أن يعقوب لم يأذن لهم بأخذه فما معنى هذا ؟ معناه أن المجاعة تخنقهم . وإن السبب في رفض يعقوب معروف ، فهم الذين عادوا في المرّة الأولى بغير يوسف . إذن فالذي ينغّص عليهم رغد عيشهم في حقيقة الأمر ، يوسف وشقيقه .

وإن استعمال ضمير المفرد الغائب وليس ضمير جماعة المتكلمين ، يجعلنا نتذكر ضمير المفرد الغائب الذي سبق أن استعمله الإخوة ، للسبب نفسه ، فيما جاء على لسانهم « ليوسف وأخوه » من هذه الآية ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إنّ أبانا لفي ضلال مبين ﴾. ويلاحظ أنّ عدد الإخوة في المناسبتين عشرة !

وكان يوسف مطمئناً إلى اقتناع الإخوة بعدالة طلبه ، وأنهم جادّون في وعدهم ، وسيقومون بإعطاء فكرة طيبة عنه إلى والدهم . ولكن ذلك كله قد لا يكون كافياً لحمل يعقوب على إرسال الشقيق معهم . وهنا جاء قوله تعالى ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ .

إن يوسف يطلب من فتيانه الذين يثق فيهم ويطمئن إليهم أن يضعوا

في رحال الإخوة ثمن الميرة التي أخذوا . ويلاحظ أن الثمن لا يوضع في رحل واحد وإنما في الرحال ، ولعله وزع عليها كلها .

ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ الفائدة أن الإخوة حينما يفتحون متاعهم بعد وصولهم إلى أهلهم ، ويجدون بضاعتهم في كلّ الرّحال ، فذلك أدعى إلى أن يعتقدوا يقيناً بأن هذه البضاعة هي ثمن الطعام الذي اشتروا من مصر ، بخلاف ما لو وضع الثمن في رحل واحد ، فربما لا ينتهي بصورة أكيدة إلى أن البضاعة ثمن الطعام .

وحينما يطمئن الإخوة إلى أنها حقّ للعزيز ، وهم الذين لا يستحلّون حراماً مطلقاً ، فذلك أدعى إلى أن يعيدوا الحق إلى صاحبه العزيز ، أو على أقل تقدير يكون عندهم حافز بالإضافة إلى الحوافز الأخرى ، على العودة إلى مصر وعزيزها . وهذا ما صرّح به يوسف في ترجيّه ، فيما جاء على لسانه (لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) .

إنه يرجو أن يعرفوا حينما ينقلبون إلى أهلهم ، أنّ هذه الدراهم عائدة للعزيز ، ويبني على الرّجاء الأول رجاءً ثانياً (لعلهم يرجعون) .

إنّ الاتّزان والتّروّي من النعوت التي فطر الله تعالى يوسف عليها . وهو بدوره يذكرنا بالاتزان والتروي الذي اكتسبه ساقي الملك لملازمته يوسف ، فقد سبق أن جاء على لسانه (لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون).

وواضح أن يوسف مطمئن إلى أنّ الإخوة لن يفتحوا متاعهم إلا بعد وصولهم إلى أهلهم .

وهذا دليل على أنّ كلّ الإخوة ، لن يضطرّوا بحال ، إلى فتح واحد من الرّحال أثناء السفر ، لأن يوسف أتاح لهم الحصول على كمية الطعام التي تكفيهم في سفرهم الطويل نسبيّا .

وإنّ كلّ ما قام به يوسف ، بما في ذلك وضع البضاعة في رحال الإخوة ، دليل على أنه لم يأخذ منهم قليلا ولا كثيراً في مقابل الأشياء الكثيرة

التي أخذوا ، وسيكون ذلك ردّ فعل حسن في أنفس الإخوة من ناحية ، ونفس يعقوب عليه السلام من ناحية اخرى .

ولكن والحق يقال ، إنّ البضاعة التي وجدت في رحال الإخوة ، هي فقط التي سهّلت عملية أخذ الإخوة لهذا الشقيق معهم .

الإخوة يراودون يعقوب عن شقيق يوسف لأخذه :

قال تعالى:﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منّا الكيل فأرْسلْ معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ، قال هل آمنكم عليه إلا كما امنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ، قال لن أرسلهُ معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ .

هؤلاء الإخوة وقد رجعوا بِعَشَرَةِ الأحمال من الطعام على الجمال إلى أبيهم الذي سرَّ بها سروراً بالغاً يفاجئونه بأنهم منعوا الكيل في المستقبل ما لم يُبعثْ معهم أخوهم ، فإنه بسببه فقط ، يستطيعون أن يحصلوا على الطعام أو لا يحصلوا ولسان حالهم يقول : إن الأمر بيدك يا والدنا ، فإن أرسلت أخانا حصلت على الطعام ، وإن لم ترْسله لم نحصل . ويختمون طلبهم بأنهم سيكونون حافظين لأخيهم .

ويلاحظ على كلام الإخوة ، الصادقين هذه المرة ، أنه موجز لا تصنّع فيه ولا تنميق .

وهيج هذا الطلب في نفس يعقوب ذكرياته الأليمة السابقة مع هذا العدد نفسه من أبنائه الذين سبق أن قدّموا الطلب نفسه ، واستعملوا هذا

القول: ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ الذي يستعملونه بحذافيره الآن ، وأخذوا ابنه الحبيب يوسف ، وعادوا عشاءً دونه .

وهنا يأتي على لسان يعقوب ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ .

وفي سبيل تبيين المبرّر لما جاء على لسان يعقوب في هذه الآية ، علينا أن نعود أدراجنا إلى آيتين سبق أن جاءتا على لسان هؤلاء الإخوة أنفسهم مخاطبين أباهم .

قال تعالى: ﴿ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ .

إنهم – كما أوضحنا من قبل – يشيرون صراحة إلى عدم ائتمان يعقوب لهم على يوسف . ويعقوب في ردّه عليهم لا يشير البتة إلى عدم الائتمان هذا بل يسكت عنه سكوتاً . وإن سكوته دليلٌ على عدم مخالفتهم في استنتاجهم ولكنه دليل صامت . إنه لم يجبهم لأنه لم يكن عنده الدليل الكافي .

وفعلوا بيوسف ما سوّلت لهم به أنفسهم وعادوا عشاء يبكون . ولم ينس يعقوب تبجّح هؤلاء الإخوة بأنهم ينبغي أن يؤتمنوا على يوسف وأنهم ناصحون وحافظون له .

وفي هذه المرة الثانية ، حينما يطلبون منه أن يُرسل معهم أخاهم . فعلى الرغم من أنهم لم يشيروا إلى أنه ينبغي أن يأتمنهم على أخيهم ، إلا أن يعقوب الذي حرك طلبهم في نفسه كوامن الشجن وأليم الذكريات يجيبهم مؤنّباً كما جاء في القرآن ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ .

وهذا القول في حقيقته ردٌ على تبجّحهم السابق بأنهم ينبغي أن يؤتمنوا ، وتقريع بأنهم لا يمكن أن يؤتمنوا هذه المرة على الشقيق ، لأنهم أثبتوا أنهم ليسوا أهلا لذلك .

وواضح أن يعقوب يقصر حديثه الموجّه إليهم على الأمانة خاصة ، التي كان في إمكانهم أن يحافظوا عليها بكلّ يسر وبساطة لو شاءوا . وحديث يعقوب الآن عن الأمانة ردّ على طلبهم بأن يرسل معهم أخاهم . لأنّ الإرسال لا يتم إلاّ إذا كان مؤتمناً لهم ، وقد أثبتوا أنهم ليسوا أهلاً للذلك .

وقد توّجّ الإخوة طلبهم بقولهم:﴿ وإنا له لحافظون ﴾ وهو ما سبق أن تبجّحوا به من قبل ، ولكن يعقوب يعلم يقيناً ، أن حفظ الإخوة لأخيهم ، إن كانوا صادقين ، ليس بذي جدوى ، إذا لم يشأ ذلك ارحم الراحمين .

وهنا يجيء على لسان يعقوب ردّاً عليهم قوله تعالى:﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ . إنه عليه السلام ، ينبّه أبناءه في لطف ، إلى أن الله تعالى هو خير الحافظين ، فعلى المرء ألاّ يثق في حفظه هو ولا في حفظ أي مخلوق ، ولكن في حفظ القادر على كل شيء .

وكأنّ يعقوب يقول لأبنائه عليكم أن تعرفوا أقداركم ، وإنكم وإن أردتم أن تكونوا حافظين ، فإن ذلك لمن يقـــدّر لكم إلاّ بإرادة الله تعالى . وإن يعقوب يبدو من قوله هذا من المتوكّلين على الله ، الواثقين في حفظه ، وليس في حفظ أي مخلوق ، ولو كانوا أبناءه . وربما كان الإنسان حريصاً على أن يكون حافظاً ورحيماً ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى حفظ أرحم الراحمين ورحمته .

وبعد جواب يعقوب الموجز المبكّت للإخوة ، المنبّه لهم إلى حقيقة أقدارهم يُسدِل الإخوة ستار الصمت على هذا الموضوع . ولعلهم قرروا في أنفسهم إرجاء الحديث فيه حتى مناسبة أخرى أكثر ملاءمة . وانصرفوا بطبيعة الحال إلى متاعهم الفرحين به . وعمد كلّ واحد منهم إلى فتح ما يخصّه منه .

وهنا يجد كل منهم في رحله ثمن الطعام الذي سبق أن دفعه في مصر وأصبح حقّاً خالصاً للعزيز . وكان ذلك مفاجئاً للإخوة مفرحاً لهم ، إذ فتح

لهم من جديد باب الحديث مع والدهم عن الرحلة الثانية إلى مصر ، وسيكون في رفقتهم بطبيعة الحال أخوهم إن أراد يعقوب الحصول على الطعام الذي هم في أشد الحاجة إليه .

إن وجود الثمن في رحالهم معناه أن هناك رحلة أخرى إلى مصر تنتظرهم ، فإن المال الذي وجدوه في رحالهم حقٌّ خالص للعزيز ، وهو حق في عرف يعقوب وآله يجب أن يعود إلى صاحبه في أي صورة من الصور .

ولكن حاجتهم إلى الطعام ما زالت قائمة . إذن فقد وجدت أسباب عدة لعودة الإخوة ثانية إلى مصر . وستكون رحلتهم قمّة في النجاح لو قدر لهم أخذ أخيهم . فإن الكيل سيكون مضموناً ، بخلاف ما لو عادوا إلى مصر ، أو عاد بعضهم لإعادة الحق إلى صاحبه ، دون أخيهم ، فإنّ الحصول على الطعام غير أكيد على الرغم من أنهم يثبتون للعزيز أنّهم قمة في الأمانة . ألم يقل لهم العزيز من قبل بصريح العبارة: ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ .

وكان الإخوة في اهتبال الفرصة الجديدة للحديث ، قمة في الذكاء ، فقد جاء على لسانهم قوله تعالى: ﴿ قالوا يا أبانا ما نبغي ؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير ﴾ . إنهم في فرح مستطير يقولون: « يا أبانا ما نبغي » ما الذي يمكن أن نبغي أكثر من الذي حصلنا عليه أو يمكن أن نحصل عليه في المستقبل ؟ لقد حصلنا في الرحلة السابقة على كل شيء نبغي . حتى ثمن الطعام نجده ، الآن في رحالنا . وإن لسان حالهم ليستمرّ قائلا : إن هذا يا أبانا دليل على كرم العزيز البعيد المدى ، وقناعته وقناعة فتيانه الذين هم صورة منه . لو كان هناك حرص على جمع المادة لا نعكس في تصرف أتباعه ، ولما جاز لنا أن نجد في كل رحالنا وليس في بعضها فقط ، ثمن كل الطعام الذي أخذنا .

ويلاحظ أن حديث الإخوة عن الرحلة السابقة موجزٌ للغاية ويقتصر على

ما استجدّ في الموضوع (هذه بضاعتنا رُدّت إلينا) أما حديثهم عن الرحلة الثانية ، التي يتمنون لها أن تتحقق ، فإنه يميل إلى شيء من التفصيل المغري ويدل على الذكاء البعيد المدى الذي يُعرف به أبناء يعقوب . إذ عرفوا كيف يستميلون قلب والدهم ويقنعونه بأخذ أخيهم معهم ؟ فقد أشاروا إلى المكاسب التي يمكن أن يعودوا بها من الرحلة الثانية الناجحة ، والتي لا يمكن أن تكون كذلك إلا بأخذ الشقيق ، وجاء على لسانهم ﴿ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيلٌ يسير﴾ .

إن كمية الطعام التي أحضروها لا تكفي آل يعقوب مدة طويلة . إذن لا بد من الطعام الذي لا يمكن الحصول عليه إلا من عزيز مصر .

وهنا يتناول الإخوة إحدى نتائج الرحلة (ونمير أهلنا) وينبغي أن يسبق ذلك إرسال أخيهم معهم . وهنا يتناولون أهمّ ما يشترط في إرسال هذا الأخ ، ألا وهو حفظهم له ﴿ونحفظ أخانا﴾ وبما أنّ عددهم هذه المرة سيزيد واحداً ، فمعنى هذا أن الطعام الذي سيحصل عليه الإخوة أكثر من الطعام الذي يراه آنذاك يعقوب بعيني رأسه . وهنا يتناول الإخوة زيادة الكيل هذه ، ولا شك أن آل يعقوب في حاجة ماسّة لكل ذلك .

ويتوّج الإخوة حديثهم بهذه الجزئية على لسانهم (ذلك كيلٌ يسير) وهي تشير إلى العزيز وكرمه ، وعند يعقوب من المعلومات الصحيحة الشيء الكثير .

وإذا كان يعقوب ، حينما طلب الإخوة منه ، قبل العثور في الرّحال على ثمن الطعام ، قد عرّج إلى السبب الذي يحول دون ذلك ، وهو عدم الأمانة ، فإنه في هذه المرّة حينما أشاروا إلى المكاسب المتوقّعة ، دون الإشارة إلى عملية إرساله ، باللفظ الصريح ، فهي معروفة ضمناً ، فإنه عليه السلام ، في جوابه ، يشير إلى عملية إرسال ابنه معهم . وكأنّ هذا الجواب الثاني ، وقد اطمأنّ إلى إرساله معهم بعد أخذ العهد عليهم ، جوابٌ لطلبهم الأوّل .

وكأن ما جاء على لسانه ﴿قال لن أرسله معكم حتىَ تؤتون مَوْثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم﴾ رد على قولهم:﴿ يا أبانا مُنع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون ﴾ .

والحقيقة أن جواب يعقوب الثاني مبني على اطمئنانه النسبي لأبنائه ، الذي تحوّل بعد أخذ العهد منهم فعلا ، إلى اطمئنان كلّي . بينما لم يكن عنده شيء من هذا الاطمئنان حينما فاجأوه أول الأمر بطلبهم أخذ أخيهم معهم ، وإن كان عنده شيءٌ من الاقتناع بذهابه للحصول على نصيبه من الطعام .

فلنتأمل الآية على لسان يعقوب التي فيها الجواب بالإيجاب المشروط . قال تعالى:﴿قال لن أرْسِلَه معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتُنّي به إلا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ .

إنه ليجيب بإرسال أخيهم معهم ، ولكن بعد أن يحلفوا له بالله العظيم ليأتنّه بأخيهم وألا يكونوا سبباً في عدم عودته إلى يعقوب . وليسوا بطبيعة الحال مسؤولين عما يُقدّرُهُ عليهم جميعاً أحكم الحاكمين ، مما لا يد لهم فيه، ولا طاقة لهم على دفعه . ولا يتردد الأبناء جميعاً في إعطاء الموثق وهم النقيّو السريرة هذه المرة .

وحينما نقارن ، في سبيل تبيين الموقف المتطور ليعقوب والأبناء ، بين ما دار في كلّ من المناسبتين على لسان الأب وأبنائه فإنه يتضح ما يلي :

١ ــ يميل حديث المناسبة الأولى ، منذ طلب الإخوة إرسال يوسف معهم حتى ظفرهم بذلك ، إلى القِصَر ، في جملته ، بينما يميل حديث المناسبة الثانية إلى الطّول .

٢ ــ حديث المناسبة الأولى يسير بالضرورة في طريق أقرب إلى الاستقامة،بينما يسير حديث المناسبة الثانية بالضرورة في طريق به شيء من انحناء . وتفسير ذلك أن الحوار في المناسبة الأولى يسير في طريقه الطبيعي

المعتاد ، بينما هو في المناسبة الثانية ، موجّه بحكم ما حدث في المناسبة الأولى ليوسف وجهة أخرى معينة .

٣ – في المناسبة الأولى كان من الإخوة تركيز كثير على يوسف بأنه سيرتع ويلعب ، بينما في المناسبة الثانية ، كان التركيز على ذات أنفسهم ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ﴾ فهم الذين سيكتالون ، لأن نصيبهم أكبر .

٤ – في المناسبة الأولى كان من يعقوب نبيّ الله توكّل على الله تعالى بعيد المدى ، بدليل أنه سمح لابنه يوسف بالذهاب مع إخوته ، ولم يُصرّح بذلك التوكل الذي صرح به في الثانية ، لأن الداعي موجود ، وهو تنبيه الإخوة إلى أنّ الله تعالى وكيل على ما دار بين يعقوب وبينهم من طلب للموثق وإعطاء له . ولم يحدث شيء من ذلك في الأولى ، لعدم وجود السبب القاضي بذلك .

٥ – في المناسبة الأولى لم يكن يعقوب مقتنعاً بأخذ الإخوة يوسف معهم ، ولكن ليس عنده الدليل المادّي لرفض طلبهم ، فوافق على مضض ، بينما كان في المناسبة الثانية ، بعد وجود الإخوة البضاعة في رحالهم مقتنعاً بذهاب الأخ معهم ، ولكنه يخشى كيدهم ، وهم الذين عادوا في المرة الأولى دون يوسف . وهنا يجد يعقوب في نفسه القدرة الكافية لأن يطالبهم بعهد الله وميثاقه ، بألاّ ينال الأخَ أيُّ سوء منهم . بل إن عبارة يعقوب ، نبي الله ، قمة في الأدب والحياء ، غاية في القوة الآن ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يُحاط بكم ﴾ وإنّ ظلم الإخوة أنفسهم في المرّة الأولى ، هو الذي حمل نبرة يعقوب التعبيرية في المرة الثانية ، على أن تكون شديدة ، بينما كانت الغاية في اللين أوّلا ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون ﴾ .

٦ – على الرغم من أن الإخوة في المناسبة الأولى قد صمّموا على شرّ

مستطير إلا أنهم لعدم وجود دليل مادّي ضدهم من قبل ، وجدوا في أنفسهم القدرة لأن يستمروا في الحديث عن أخذهم يوسف معهم ، على الرغم من أن يعقوب أبدى حزنه وتخوّفه من ذلك . وفي المناسبة الثانية ، على الرغم من أن الإخوة كانوا صادقين في كلّ ما قالوا ، إلا أنهم بسبب ما فعلوا بيوسف ، لم يجدوا القدرة على الاستمرار في الحديث عن أخذ أخيهم معهم بعد تأنيب يعقوب لهم .

٧ ــ في المناسبة الأولى ، كان لدى الإخوة الجرأة لأن يفاجئوا أباهم بطلب إرسال يوسف معهم ، أما في المناسبة الثانية ، فلم يستطيعوا أن يتفوهوا بالطلب إلا بعد أن رأى والدُهم الكمّيات الكبيرة من الطعام . بدليل أن هذه العبارة الموجزة على لسانهم ﴿ يا أبانا مُنِعَ مِنا الكيل ﴾ كانت معروفة ليعقوب ؛ إذ فهم أنهم يريدون المستقبل .

٨ ــ مهّد الإخوة في كلّ من المناسبتين لطلبهم . وبتأمّل التمهيدَين يتضح أن الأول ﴿ يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ مرتبط بذات أنفسهم بينما الثاني ﴿ يا أبانا مُنِعَ مِنا الكيل ﴾ مرتبط إلى درجة كبيرة بالطعام .

٩ ــ في المناسبة الأولى كان لدى الإخوة القدرة على الادّعاء والاستمرار فيه ، بينما هم في المناسبة الثانية ، لم يستطيعوا أن يستمروا في الحديث المستقيم إلا بعد تدخّل خارجي . ألا وهو وجود ثمن الطعام .

١٠ــ في المناسبة الأولى ، حينما طلب الإخوة أخذ يوسف عبّر يعقوب عن حزنه لذهابه وخوفه عليه من الذئب . بينما في المناسبة الثانية عبّر يعقوب عن خوفه على الشقيق فقط ، سواء قبل عثور الإخوة على ثمن الطعام أو بعده وتفسير ذلك أن حبّ يعقوب ليوسف أكثر من حبه لشقيقه .

١١ــ أخذ يعقوب عليه السلام الموثق من أبنائه ليس فيه البتة منافاة لإيمانه بالقضاء والقدر والتوكل على الله ، بدليل أنه أخذ الموثق من أبنائه

بألا يفعلوا من جانبهم أيّ ضرر يقدرون على عدم فعله . أما ما لا يد لهم فيه فقد جاء على لسانه قبل أخذ الموثق (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) وجاء بعده على لسانه (الله على ما نقول وكيل) بل إن ما فعله يعقوب من أخذ الموثق على الإخوة الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا يعتبرُ درساً نافعاً لكلّ ذي بصيرة نيّرة ، والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرّتين ، وإن يعقوب قد أخذ الموثق من أبنائه وفلذات كبده ، فمن باب أولى أن يأخذ الموثق من سواهم ممن قد يخشى أذاهم .

١٢– لو أنّ الإخوة في المناسبة الثانية غير مقتنعين بطلب والدهم منهم إعطاء الموثق لكان منهم على أقل تقدير حوار في هذا الموضوع . ولكنّهم يعرفون تماماً ما عملوه بيوسف وأن والدهم محق في طلبه . لهذا أعطوا الموثق ببساطة . بل لعلّهم أعطوه مع شيء غير قليل من الارتياح ، لأنّ هذا الإعطاء موافق لنيتهم الطيبة الصافية تجاه أخيهم ، ثم إن الحاجة للطعام ما زالت قائمة .

١٣– تبيّن من القول على لسان يعقوب (لتأتنني به) أنه قد سدّ عليهم كلّ فرص الإيذاء لأخيهم ، سواء كانت من ذات أنفسهم أو بإيحاء منهم لسواهم .

١٤– اطمئنان يعقوب لأبنائه بأخذ الشقيق بعد إعطاء الموثق شهادة منه بصلاح أبنائه ، وأنهم يقدّرون العهد الذي آتوا حقّ التقدير . ولو كان اعتقاده فيهم بغير ذلك لما فكر البتة في طلب الموثق الذي سَيُعْطَى ولكن لن ترعى له حرمة .

يعقوب المحب لأبنائه يخشى العين عليهم :

قال تعالى:(وقال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت

وعليه فليتوكل المتوكلون ، ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها . وإنه لذو علم لما علّمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وهكذا بعد أن أعطى الإخوةُ الموثقَ الذي طلب والدهم عرفوا أن رحلة أخرى في انتظارهم . وبما أنهم عادوا لتوّهم من سفر بعيد ، وسيقطعون المسافة مرة ثانية ، فمعنى هذا أنهم في حاجة إلى نوع من الراحة من ناحية ، وإلى استعداد معين لذلك السفر . ولعلهم اكتفوا بأقصر فترة ممكنة ، لأنّ الحاجة إلى الطعام قائمة . فالكمية التي حصلوا عليها ، وإن كانت كبيرة إلى حد ما ، فإنها تكفي آل يعقوب لفترة معينة ؛ بينما تستغرق رحلتهم ذهاباً وإياباً أياماً عديدة . تكون تلك الكمية آخذة أثناءها في النقصان .

ثم إن إكرام العزيز الفائق لهم كان مغرياً لهم بالعودة .

وفوق كل ذلك هم قد نجحوا في أخذ أخيهم معهم وسيثبتون للعزيز حينما يشاهده ويتحدث إليه أنهم صادقون في كل ما قالوا ، وسوف ينال هذا الأخ كيل بعير من الطعام الذي سينتفع به آل يعقوب ولا شك .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الإخوة جادّين في الاستعداد للرّحلة . وفي أول فرصة ممكنة كانوا على وشك الرّحيل . وتمّ كل ذلك بمرأىً من يعقوب . وحينما حانت لحظة المغادرة كانت منه تلك الوصيّة التي تنمّ عن المحبة الفائقة التي وضعها في قلبه لكل أبنائه أرحم الراحمين : ﴿ يا بَنِيَّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أُغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ .

إن يعقوب يخاطب كل أبنائه ولا يخصّ واحداً منهم دون غيره ، ولا بعضهم دون بعض في هذه الصيغة « يا بَنِيَّ » التي تدل على الحنان الفائق لكل بنيه . ويُردف ذلك بالنهي فالأمر ﴿ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ .

هو يخشى عليهم العين وهي حقّ . نصّ على ذلك القرآن الكريم في أكثر من موضع والحديث النبويّ الشريف . ففي الحديث : إن العَينَ لتُدخِل الرجُل القبر والجمل القِدْر ، وفي التّعوّذ : ومن كلّ عين لامّة (١) .

ويلاحظ أنه يقول في صفة الأبواب « متفرقة » ولا يقول « متعددة » فقد تكون هناك أبواب متعددة ولكنها متقاربة . ولا فرق حينئذ بين دخولهم من هذه الأبواب التي تلك صفتها وبين دخولهم من بابٍ واحدٍ . وإنّ الصفة « متفرقة » تفيد معنى متعددة ، وتزيد عليها بأنها متباعدة عن بعضها .

ونودّ أن نعين المكان الذي سيدخل منه الإخوة : هل هو البلاد المصرية ، أم المدينة التي فيها العزيز ؟ وقد ذهب البعض إلى أن المراد البلاد المصرية ، وكأنّ المراد لا تدخلوا البلاد من باب واحد ولكن من أبواب متفرّقة . والمعروف أن منافذ الحدود ليس بها سوى عدد محدود من الناس . ثمّ إنّ العادة جرت أن يكون لكلّ منفذ بابٌ واحد . ومن ثم نحن نميل إلى عدم قبول هذا الرأي وإلى أن المراد دخولُ المدينة التي فيها عزيز مصر . فقد جرت العادة بأن يكون للمدينة ، التي هي بمثابة العاصمة أكثر من مدخل وأكثر من باب .

ثم إن دخول أحد عشر رجلا من باب مدينة واحد ، حيث تكون هناك عادة مجموعات من الناس ، ذلك أدعى لأن يأخذ المرء حذره من العين .

ومما قد يدلّ على ذلك أن آل يعقوب ، وفيهم والدا يوسف ، في الرّحلة الرابعة والأخيرة ، حينما اقتربوا من المدينة ، كان يوسف عليه السلام قد خرج لهم ، وآوى إليه أبويه بالذّات ، ثم طلب إليهم جميعاً

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٢٥ والعين اللّامّة : المصيبة بسوء . او هى كل ما يخاف من فزع وشر . القاموس .

أن يدخلوا مصر إن شاء الله آمنين . فدلّ الدخول هنا على أنّ المراد به في قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ مدينة مصر التي فيها عزيزها وليس الحدود المصرية ، والله أعلم .

ونتساءل عن الأسباب التي دفعت يعقوب لإسداء هذه النّصيحة القيّمة لأول مرّة ، بينما هذه الرحلة ليست الأولى ، ومن يدري ؟ ربما لم تكن الثانية أيضاً . فلعلها سبقتها إلى غير مصر رحلةٌ أو أكثر . وللجواب على ذلك نقول : إنّ هناك أسباباً لذلك ، نجملها فيما يلي :

١ ــ هذه هي المرّة الأولى التي يعود فيها الإخوة إلى ذات المكان الذي ذهبوا إليه من قبل .

٢ ــ الفترة قصيرة بين ذهاب الإخوة إلى مصر في المرّة الأولى وفي هذه المرة . فهي لن تعدو الفترة التي يُقطع فيها الطريق ذهاباً وإياباً ، يضاف إليها فترة استعدادهم للرحلة . وهذا لافت للأنظار عادة .

٣ ــ عدد الإخوة في المرة الأولى عشرة ، وهو عدد ليس بالقليل ، ونستطيع أن نقول : إنه لا يوجد دائماً إخوة يصل عددهم إلى هذا الرّقم . وإن أقلّ زيادة عليه ستكون أكثر لفتاً للأنظار . ولا نستطيع أن نغفل التّشابه الضّروري بين الإخوة في الملامح ؛ وإن كانوا غير أشقّاء ، فكيف وقد عُرف في المرة الأولى أن هؤلاء العشرة إخوة ؟ فإذا جاء معهم الأخ الحادي عشر فإن الرائي قد يستطيع أن ينتهي إلى أنه أخوهم . ولا ننسى أنه قد عرف من قبل أن الإخوة لن يستطيعوا العودة إلا ومعهم أخوهم من أبيهم .

٤ ــ كان يعقوب ، أثناء غياب الأبناء ، يتعزّى بشقيق يوسف عنه وعن إخوته . ثم عادوا إليه ، وكان سروره بهم بالغاً ، وألِفَهُمْ بالقرب منه في هذه الفترة القصيرة التي أخذوا يستعدّون فيها للسفر وملأوا عليه

الدّار . وفجأة يتبين هذا الأب ، أنه بين لحظة وأخرى لن يكون معه واحد من أبنائه ، بما في ذلك الشقيق ، وفي ذلك ولا شك تحريك لغريزة الإشفاق عنده على فلذات كبده ، وتجسيد لما هو ممكن وليس بمستبعد ، ألا وهو الحسد لهؤلاء الأبناء .

٥ ــ لا يمكن أن ننسى أن الإخوة سيأخذون معهم في هذه الرّحلة أحبّ الأبناء إليه بعد يوسف .

٦ ــ إن يعقوب يقول ما يقول ؛ بإيحاء من الله تعالى ، كما نص على ذلك القرآن .

وقد قال الزمخشريّ معلّلا : « لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة ، اشتهرهم أهل مصر بالقرْبة عند الملك والتكرمة الخاصّة التي لم تكن لغيرهم ، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود ؛ وأن يشار إليهم بالأصابع ويقال : هؤلاء أضياف الملك انظروا إليهم ، ما أحسنهم من فتيان ! وما أحقهم بالإكرام ! لأمر ما أكرمهم الملك وقرّبهم وفضّلهم على الوافدين عليه ، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور فيصيبهم ما يسوؤهم ولذلك لم يُوصِهِمْ بالتفرُّق في الكرّة الأولى . لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس » (١) .

وبعد إسداء يعقوب نصيحته يجيء على لسانه قوله تعالى: ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ إنّه يبيّن لأبنائه في وضوح تام بأنّ نصيحته لا تعدو أن تكون نوعاً من الحَيْطة والحذر ، الذي يحمل بكلّ إنسان أن يقوم به ، وليس معناها أنه ، وإن كان نبياً لله ، يمكن أن يكون لها شيء من أثرٍ فيما قدّره أحكم الحاكمين وقضاه عليهم .

كما يريد أن يُشعرَهم بأنه ليس هناك تعارض أبداً بين الحيطة والحذر من ناحية ونفاذ أمر الله تعالى من ناحية أخرى .

---

(١) الكشاف ٢ : ١٤٦ .

وتأمل الجارّ والمجرور « عنكم » الذي تضمنه كلام يعقوب ، بل الذي حرص يعقوب على تضمينه كلامه ، على الرّغم من إمكان الاستغناء عنه لو شاء . ولا يخفى أن الضمير الذي دخل عليه الجار ، ضمير جماعة المخاطبين ، وهم أبناء يعقوب .

وحينما يُصرّح في خطاب صريح لأبنائه وفلذات كبده ، بأنه وهو نبيُّ الله ، لا يغني عنهم من الله شيئاً ، فمن باب أولى أن يكون ذلك موقفه من غير أبنائه .

وتأمل أيضاً حرْف الجر « من » الذي يفيد التبعيض من قوله تعالى على لسانه:« من شيء » وفي ذلك توكيد لعدم قُدرة يعقوب على إحداث أدنى شيء فيما قدّره على أبنائه القادر على كلّ شيء جل وعلا .

وقد عمّق المعنى السابق الجزئية التي جاءت مباشرة على لسان يعقوب ﴿إن الحكمُ إلا لله﴾ . والتي تدلّ دلالة تامة الوضوح على أنّ المتحكم المطلق في الأمور كلها هو الله تعالى وحده لا شريك له .

أما الجزئية على لسان يعقوب « عليه توكلت » فهي مؤكدة لسابقتها موضحة تمام الوضوح ، بأنه لا تعارض مطلقاً بين النصيحة التي أسداها لأبنائه وبين التوكل على الله .

ويلاحظ أنّ الفعل في الجزئية المتعلقة بذات يعقوب فعل ماض ، فهذه حاله دائماً وفي كل وقت ، بينما جاء الفعل في الجزئية الخاصة بسواه « وعليه فليتوكل المتوكلون » في صيغة الأمر المؤكد . وهذه نصيحة أخرى تشمل أبناءه وسواهم بأن عليهم أن يكونوا دائماً متوكّلين على الله حقّ التوكل . كما تفيد فهم الأبناء لنصيحته ، بأن عليهم في الوقت الذي يقومون فيه بتنفيذ نصيحته ، أن يكونوا متوكلين على الله رب العالمين .

وأتت بعد ذلك الآية التعقيبية على نصيحة يعقوب واستدراكاته . ولها علاقة وثيقة بيعقوب . قال تعالى:﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم

ما كان يُغْني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاهـا ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) .

هذه الآية ، تشير إلى أنّ أبناء يعقوب قاموا بتنفيذ نصيحة والدهم بحذافيرها ، ولم يخالفوا أمره وهي طاعة تدلّ على ما بعدها ، وأن الإخوة سيحاولون جاهدين العملَ وفقَ العهد الذي قطعوه على أنفسهم .

وهذا دليل على أن تطوراً ما ، تجاه الخير والحُسْن ، طرأ على شخصيات الإخوة . وقد سبق أن ألمحنا إلى أنه ليس هناك واحد من أبناء يعقوب يمكن أن يقال إنه شر خالص . حتى في اللحظة الحرجة التي هموافيها بجعل يوسف في غيابة الجب .

والآية تشير بوضوح إلى أن أبناء يعقوب حينما دخلوا مدينة مصر من أبواب متفرقة ، لم يحدث لهم أيُّ سوء . لأنّ هذه النتيجة التي وافقت الحاجة التي كانت في نفس يعقوب ، هي التي كان قد قدّرها عليهم أحكم الحاكمين . ولو أنه تعالى قدّر عليهم سوءاً لما نفعتهم نصيحة والدهم وعملهم بها . ولكن الآية تنص صراحة على أن نصيحة يعقوب وتحذيرهم من العين ، كان بإذن من عالم الغيب والشهادة ومن علمه تعالى الذي علمه يعقوب فعمل به .

إن يعقوب لم يكن ليكتم عن أي مخلوق علماً علمه الباريُ إياه ، فكيف إذا كان المنتفع من ذلك العلم أبناءه !

وهذه الجزئية التي تختتم بها الآية (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) تنصّ على أن قليلا من الناس فقط . هم المؤمنون ، الذين يؤمنون بهذا القرآن وبكل ما جاء به . يعلمون ما علمه يعقوب من الجمع بين الأخذ بالأسباب وبين التوكل . أما جمهور الناس فإنهم عن هذا غافلون .

لـن يعـود الإخـوة إلى يعقوب موفوري العدد :

الأبناء الذين عملوا بنصيحة والدهم ، ولم يُصبهم ـ لموافقة هذه النصيحة ما قدّر الله تعالى ـ أدنى أذى ، لا يعودون إلى أبيهم موفوري العدد ، ولا ينقص منهم واحدٌ فقط ، كما حدث في المرة الأولى ، إنما ينقصُ منهم اثنان . أحب الأبناء الباقين ليعقوب ، بنيامين والأخ الأكبر ، الذي رفض العودة إلى أبيه دون بنيامين ، الذي أعطى هو وإخوته الموثق لأبيهم ليأتنه به إلا أن يحاط بهم .

ونستطيع أن ننتهي إلى أن يعقوب لم يعد إليه في هذه السفرة الثانية أحبُّ أبنائه إليه بنيامين الذي يتعزى به عن يوسف والأخ الأكبر ، وهما أحبَّ الأبناء إليه قاطبة . أما الأخ الأكبر فهو الذي سبق أن انتهينا إلى أنه الأخ الذي وضع الله في قلبه الكمية الضرورية من الود ليوسف ، وهو الذي رفض قتله أو طرحه أرضاً ، واقترح جعله في غيابة الجب إن كانوا فاعلين .

وهو الابن الوحيد الذي لا يجرؤ على العودة إلى أبيه دون الشقيق ويصرّ على البقاء في مصر .

وإذا كان تصرّف الأخ هكذا مع يوسف ولأجل الشقيق ، فمعنى هذا أنه أبرُّ الإخوة بأبيه بعد يوسف وبنيامين ، ومعنى هذا أنّ مصاب يعقوب عليه السلام على ابنيه جلل . ويتضح إذن أن الحذر لا ينجي من القدر .

إخوة يوسف فى مصر للمرة الثانية :

قال تعالى:(ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذّن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ، قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ، قالوا فما

جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ، كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علم عليم) .

وهكذا بعد الرحلة الطويلة الشاقة كالمعتاد وصل الأحد عشر أخاً مصر واتجهوا صوب العزيز ، ولم يفكروا البتة في التوجه صوب سواه ، فهو الآن المتصرف في شؤون مصر ، ودخلوا عليه جميعاً ، ولعل ذلك تمّ بعد استئذانه وإعلامه بأن الذين اشترط عليهم من قبل أن يجيئوا بأخ لهم من أبيهم إن أرادوا الطعام في المستقبل قد جاءوا ومعهم شاب آخر . لعله أخوهم ، فإنّ التشابه في الملامح بينه وبينهم ظاهر .

ولا نستبعد أن يكون العزيز قد أوحى إلى حاجبه بأن عليه حينما يدخل الأحد عشر رجلا أن يجعلوا أصغرهم ، الذي جاء معهم لأول مرة بالقرب منه ، فهذا هو الذي يُفهم ، والله أعلم ، من جملة « آوى » بمعنى قرّب وأدنى .

كما يفهم من هذه الجزئية (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) أنّ الإيواء تمّ بعد الدخول مباشرة .

ونستطيع أن نفهم أن يوسف حينما علم بأن إخوته بالباب وأن معهم شخصاً آخر ، استنتج أنه شقيقه بنيامين . لذلك كان حريصاً على أن يأذن لهم بالدخول في أول فرصة ممكنة لشوقه البالغ له .

وبعد دخول الإخوة ، نستطيع أن نفهم أن يوسف كان يحاول جاهداً أن يكبح جماح طَرْفه من ملازمة الشقيق ، كيلا يكون ذلك مثار تعجّب الإخوة ، وأسئلة كثيرة منهم عن السرّ الذي يكمن وراء تلك النظرات المتلاحقة . خاصة وأن يوسف قرر في نفسه استبقاء أخيه عنده ورسم الطريقة التي سيتم بها التنفيذ .

وإذا كنا انتهينا الآن إلى أن الإيواء حدث بعد الدخول عليه مباشرة ، في قوله تعالى:﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ فإنا لا نستطيع أن ننتهي إلى أن ما جاء على لسان يوسف في الآية نفسها مخاطباً شقيقه ﴿إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ قد تم أثناء ذلك الاجتماع .

لماذا ؟ لأن الشقيق حينما يرنّ في أذنه إني أنا أخوك ، في هذه الصورة القوية من التعبير ، فنحن بصدد ضمير المتكلم المنفصل المؤكد للمتصل ، فإنه لن يستطيع تلقي هذا النبأ المفاجيء بهدوء . بل إنه يكادُ يصعق لهول المفاجأة ، تماماً كما حدث لإخوة يوسف وهم تسعة ، حينما فوجئوا بأن العزيز الذي أمامهم هو أخوهم يوسف بعد أن أماط اللثام عن حقيقة نفسه .

وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون تعريف يوسف حقيقة نفسه لشقيقه تمّ في تلك الأثناء ، لأن ذلك معناه أن يعرفه إخوته ، وهذا شيء لم يأذن به الله تعالى .

وبما أن الإخوة كانوا جاهلين تماماً بحقيقة العزيز ، حتى مجيئهم في الرحلة الثالثة متحسسين ، نزولا على رغبة أبيهم ، من يوسف وأخيه ، فمعنى هذا أنّ ما جاء على لسان العزيز ﴿إني أنا أخوك فلاتبتئس بما كانوا يعملون﴾ لم يكن بحضرة الإخوة بحال ، لأن معناها في غير صالحهم أيضاً .

ثم إن هذه الجزئية نفسها ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ تعتقد أنها لم تصدر من يوسف إلا بعد حديث طويل مع شقيقه ، ومعرفةٍ منه شخصياً للمعاملة السيئة التي كان الإخوة يعاملونه بها .

ونعتقد أن الفعل الناقص من قوله تعالى:« بما كانوا يعملون » يرتبط بفترة زمنية لا يعرف يوسف ، من ذات نفسه عنها شيئاً(١) . إلا بعد حصوله على المعلومات من ذات الشقيق .

---

(١) الا اذا تم ذلك بإلهام من الله تعالى له ، كما عرف فى المستقبل عن كون والده يعقوب أعمى .

وتفسير ذلك أن علاقة يوسف بشقيقه انقطعت منذ أن ذهب الإخوة به ، وجعلوه في غيابة الجب ، حتى الرحلة الثانية التي جاء فيها الشقيق .

وعرفنا أن يوسف حينما جُعل في غيابة الجبّ كان صغير السن حقاً . كما عرفنا أنه أكبر سناً من شقيقه . إذن لم يكن هذا الصغير الشقيق . قبل أن يُجعل يوسف في الغيابة ، مظنّة إساءة إخوته معاملته ؛ لصغر سنّه من ناحية وانصراف اهتمام الإخوة إلى يوسف من ناحية أخرى .

ثم إن الإخوة حتى أخذهم يوسف وإلقائه في الغيابة ، لم تكن معاملتهم ليوسف ظاهرة السّوء . وإلا لرفض من ذات نفسه الذهاب معهم حتى ولو أذن له والده .

ومن باب أولى ألا يعامِلَ الإخوة الشقيق معاملة سيئة للأسباب التي ذكرنا .

وعلى ذلك فإن يوسف لم يكن عنده علم بنوع المعاملة التي عومل بها شقيقه ، ومن ثمّ لم يكن بمقدوره أن يجيء على لسانه ، مشيراً إلى معاملة الإخوة السيئة ، قوله تعالى:« فلا تبتئس بما كانوا يعملون » إلا بعد حصوله على هذه المعلومات منه .

وسنحاول تحديد الفترة الزمنية التي ساءت فيها معاملة الشقيق . وليس هناك ما يمنعنا من الاعتقاد بأن هذه المعاملة اتخذت صورتها الحقيقية من الوقت الذي بدا فيه للإخوة إطاقة الشقيق لها .

ولا شكّ أنها بداية تعجلوا بها قبل أوانها ونضجها .

ودليلنا على ذلك أنهم سبق أن حمّلوا الصغير يوسف ما ليس في طاقته ووضعوه في المكان الذي لولا إنقاذ الله تعالى له لمضى كأمس الدّابر .

أمّا إلى أي وقت استمرت فيه هذه المعاملة السيئة القادرة على الإيذاء دون

القدرة على الرّدّ ، فحتى أصبح الشقيق قادراً على الدّفاع عن نفسه والانتصار لها .

ومن يدْري ؟ ربما كان من الأسباب التي جعلت نفس يعقوب تسمح له بإرسال الشقيق أنه رجلٌ في ريعان الشباب ، ولعله كان يتمتع بصحة ونشاط وحيوية ليست لجميع إخوته بلا استثناء ، فقد كان حينما سافر ، في حدود الثلاثين من عمره . وهذا يعني ضمناً أنهم لو فُرض أن نكثوا العهد وحاولوا الإيذاء فإنه في مقدوره أن ينتصر لنفسه ويعود بالتالي إلى والده .

إذن اتضح من كل ما سبق أن قوله تعالى:﴿ إني أنا أخوك ﴾ جاء على لسان يوسف ، مخاطباً شقيقه ، حينما لم يكن واحد من إخوته بحضرته بل حينما لم يكن معهما ثالثٌ إلا الله تعالى . وأن قوله تعالى:﴿ فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ جاء على لسانه بعد حديث طويل بين الشقيقين أما متى حدث ذلك وكيف ؟ فهذان شيئان يسيران جداً .

أما متى تم فالمعروف أن الإخوة جاءوا مصر بعد رحلة طويلة شاقّة ، وهم على وشك القيام بالرحلة نفسها فهم في حاجة إلى الراحة والاستعداد وذلك يستغرق وقتاً .

فإذا عرفنا أن الإخوة في هذه الرحلة يشكلون جزءاً من القافلة ، فمعنى هذا أنهم مقيّدون بوقت معين .

ومن السهل جداً التوفيق بين وقت الرحيل وما خطط له يوسف وشقيقه .

ولا ننسى أن العزيز كريم على حد ما جاء على لسانه ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ وذلك مما يجعل عندهم الاستعداد لقبول طول فترة البقاء .

أما كيف تم ذلك ؟ فما أسهله على كل من العزيز وشقيقه ! إذ نستطيع

أن نفهم أنّ يوسف اتفق مع شقيقه على أن يستبقيه عنده تمهيداً لجلب كل آل يعقوب إلى مصر .

كما أنهما اتفقا على الوسيلة التي يتم بها الاستبقاء ، دون أن يعلم الإخوة بحقيقة الاتفاق .

فمن المستبعد تماماً أن يوضع صواع الملك في رحل شقيق يوسف ، دون سابق علم منه . فكيف يدري الشقيق أن يوسف هو الآمر بوضعه في رحله ؟ وكيف يدري بالمغزى البعيد الذي يرمي إليه يوسف ؟

وهل من المعقول أن يفاجأ إنسان بتهمة كبيرة كهذه دون أن ينبس ببنت شفة ؟ خاصة وأنّ القضية لم تعالج في رفق إنما في صورة قويّة من العُنف ، إنّ سكوته معناه صدق نسبة التهمة إليه ، أو أن هناك مفاهمة سابقة بألّا يرفض هذه التهمة بل يسكت عنها لغرضٍ ما . وهو ما حدث فعلاً .

وضع السقاية فى رحل الشقيق :

قال تعالى : ﴿ فلمّا جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثمّ أذن مؤذّن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾.

ومتى يجهزهم العزيز ؟ بعد إنزالهم منزلا كريماً ، ومكثهم في كنفه ورعايته المدّة المقررة ، وبعد تزويدهم بكل ما يحتاجون إليه في سفرهم . وبعبارة أخرى : بعد أن قدّم لهم كلّ ما سبق أن قدمه لهم في المرة الأولى .

ونتساءل : من الذي قام بتجهيزهم الحسّي ؟ والجواب على ذلك أن المفروض أن يكون العزيز أصدر أمره بتجهيزهم ، والفتيان هم الذين قاموا بالتنفيذ أي التجهيز الحسى .

ومعنى هذا أن الفعل الماضي جهز من قوله تعالى:« فلما جهزهم بجهازهم» يفهم منه أن الأمر من العزيز والتنفيذ من الفتيان .

ونقيس على تلك الجملة الفعلية ، جملة جعل ، من قوله تعالى في الجزئية التي جاءت مباشرة:(جعل السقاية في رحل أخيه) فالذي يفهم ، أنّ الفكرة صدرت من العزيز ، والذي قام بتنفيذها فتى واحدٌ من الفتيان .

أما لماذا قام بها فتى ؟ فقياساً على ما حدث في المرة الأولى . قال تعالى عن يوسف:(وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) .

وأما لماذا حُدد العدد هذه المرة بواحد ؟ فلأن هنا صواعاً واحداً ، سيوضع في رحل واحد . بينما في المرّة الأولى كانت الحاجة لوضع البضاعة في كلّ الرّحال .

ثمّ إن عملاً مهمّاً كوضع الصواع في رحل شقيق يوسف يحتاج إلى تضييق دائرة من يعرفون ذلك السرّ إلى أبعد الدرجات لخطورة الأمور التي ترتّبت على ذلك . والحكمة تقتضي ألاّ يعلمَ أكثر من شخصٍ واحد مؤتمن بذلك . ما دام يستطيع القيام به منفرداً .

ونستطيع أن نفهم أن العير قد فصلتْ ، وافتقد الصواع ، وبحث عنه فلم يُعثر له على أثر ، وبما أن آخر جماعة كيل لهم به هم أبناء يعقوب ، وافتقد الصواع على إثرها مباشرة . وبما أنهم غادروا البلدة قبل برْهة وجيزة متجهين صوبَ ديارهم ، إذن فالذي يرجّح بعد التثبت من فقده وعدم أخذ شخص آخر له ، أن الصواع قد سرقته العير التي فصلت . إذن ينبغي أن يتتبعوا ويؤمروا بالوقوف ويفتشوا تفتيشاً دقيقاً .

وهنا اندفع مجموعة من المسؤولين المأمورين تجاه العير ، وصاح واحد منهم بأعلى صوته منادياً ، بل مكرراً النداء ، كما جاء في القرآن الكريم (ثمّ أذن مؤذّنٌ أيتها العير إنكم لسارقون) .

والذي يدل على أن هناك فاصلا زمنياً بين رحيل القافلة ، وأذان المؤذن حرف العطف ثمّ .

وحينما نتأمل ما جاء على لسان المؤذن ، فإنا نجده بليغاً موجزاً مؤلما ، فيه صراحة واضحة ، وفيه قوة . إنه يخاطبهم وجهاً لوجه مضمناً كلامه إن واللام المفيدتين للتوكيد . ولا يخفى أن خبر إن جاء في صيغة جمع المذكر السالم ، فكأن صفة السرقة لاصقة بكل أفراد القافلة ، ولم يكن بإمكانه إلا أن يقول ما قاله .

ونستطيع أن نفهم أنّ المؤذّن الذي صاح بأعلى صوته من الأعماق ، عزّ عليه أن يُسرق صواع ملكه . وأُوحِيَ إليه أن العير التي فصلت هي التي سرق أصحابها . ولا يخفى أن في الإيحاء له باستخدام صيغة الجمع مغزى بعيداً ، إذ يُبعد ظن الإخوة في المستقبل ، حينما يوجد الصواع في رحل شقيق يوسف ، عن محاولة إيجاد نوع من عَلاقة ، بين ما قد كان في الإمكان أن يجيء على لسان المؤذن : أيتها العير إن فيكم لسارقاً ، وبين وجوده عند شخصٍ واحد معين . إذ ربما قالوا لماذا جاءت صيغة المفرد على لسان المنادي ؟ ولم تأت صيغة الجمع مثلا . فمن الجائز جداً أن تكون هناك مجموعة من الأفراد قامت بسرقة الصواع .

وفي سبيل تبيين خفايا شخصيات هذا المشهد البليغ الموجز . نرى لزاماً علينا ابتداءً توضيح بعض النقاط المسعفة لنا على الوصول إلى الهدف الذي ننشده :

أولا : يفهم من قوله تعالى:﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ، قالوا وأقبلوا عليهم . . ﴾ أن هناك مجموعة من المسؤولين المخولين رسمياً بالبحث عن صواع الملك .

ومن الجائز أن يكونوا من فتيان العزيز بل هذا هو الراجح ، والله أعلم ، للسبب الذي سنذكره بعد قليل ، وأن من بين هؤلاء المسؤولين المؤذّن الذي كرر نداءه المعروف بتسريق أهل القافلة .

ثانياً : يفهم من هذه الآية الكريمة ، قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به

حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ أن جزءاً منها . بصيغة الجمع ، جرى على لسان المسؤولين « قالوا » وأن جزءاً منها بصيغة المفرد « وأنا » جرى على لسان المؤذّن .

ثالثاً : سبق أن أشرنا إلى أننا فهمنا من حرف العطف « ثمّ » أن القافلة قد انطلقت في طريقها إلى فِلَسْطِين .

ونحبّ أن نضيف أننا نفهم من قوله تعالى على لسان الأخ الأكبر: ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ أن المؤذن والفتيان لم يدركوا القافلة إلا بعد أن قطعت مسافة طيبة وصلت إلى قرية ما في الطريق ، يقال إن اسمها « صوْعن » (١) ولا يمكن أن يراد بالقرية سكان المدينة التي فيها العزيز . لأنه في المناسبات الأخرى لم تستخدم لفظة القرية في الدلالة عليها ؛ فقد جاء مثلا قوله تعالى:﴿ وقال الذي اشتراه من مصر ﴾ . وقال تعالى:﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ ، وقال تعالى:﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ .

كما نحبّ أن نضيف إلى أننا نفهم من لفظة « العير » التي جاءت على لسان الأخ الأكبر في قوله تعالى:﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أن الإخوة كان معهم في تلك الرحلة سواهم ، وهم الذين استشهد بهم هذا الأخ ، وكان بمرأى منهم ومسمع نداء المنادي والحوار الذي دار بين المسؤولين وفيهم المنادي وبين الإخوة .

كما نحبّ أن نضيف أننا نفهم من الحوار الذي دار بين الإخوة والمسؤولين أن الاتهام كان مقصوداً به الإخوة فقط ، فلعلهم قد كيل لهم الطعام آخراً ، على الرغم من أن النداء كان شاملا لكل أهل القافلة .

وتفسير ذلك أن المنادي لم يكن يستطيع أن ينادي في تلك الصورة . ثم إنه لم يكن يعرف أين مكان الإخوة في تلك القافلة ؟

---

(١) انظر مؤتمر تفسير سورة يوسف ٢ و ١٠٩٤ و ١١٢٩ .